من بلاغة العدد غير المقيد
لمعدوده في البيان النبوي
"دراسة تحليلية" أحاديث الصحيحين نموذجا

إعــداد

دكتور

أحمد محمود محمد الجبالي

أستاذ مساعد في قسم البلاغة والنقد بكلية
الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بكفر الشيخ
(جامعة الأزهر)

ملخص البحث

"من بلاغة العدد غير المقيد لمعدوده في البيان النبوي أحاديث الصحيحين نموذجا"

دكتور/ أحمد محمود الجبالي- أستاذ مساعد في قسم البلاغة والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بكفر الشيخ.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد كل عالم وتقي، وإمام كل رسول ونبي سيدنا محمد – ﷺ – ... وبعد

فالإيجاز سمة البيان النبوي، وإحدى أظهر خصوصياته، بما أُعْطِيّ النبي– ﷺ – من جوامع الكلم، وبدائع الوصايا والحكم، " فإن الألفاظ في السنة النبوية الدالة على الأحكام الشرعية، والحكم الأدبية لا تزال المعاني المستخرجة منها غضة طرية على تكرر الأعوام وتطول الزمان، ومع ذلك فإنهم ما أحاطوا بغايتها، ولا بلغوا نهايتها(١)، وسيظل البيان النبوي مهما طال الزمن، وتبدلت الألسن والفطن، معينا لا ينضب، وطريقا لا يضل عليه هاد، ولا يعدم الخير فيه داع، ولا يغلق على الفهم منه باب عند قوم إلا لقلة معرفة منهم بلسان العرب وَغَوْرِ كلام النبي – ﷺ –، ومن ثم وجه الباحثون والدارسون وجهتهم إلى أحاديث النبي–ﷺ– يبحثون عن موطن جمال الكلمة في موضعها، ودقة التعبير بها دون غيرها، وكذلك الجمل في البيان النبوي وما تحمله من جمال في سياقها وجلال في معانيها، ما لا يستطيع غيرها– مهما اجتهد المجتهدون– من أداء المعنى المراد لكونها خرجت من فِيّ الصادق المعصوم – ﷺ –، الناطق بالحق، الهادي إلى سبيل الرشد، قصدا للوقوف على مراد الله من الخلق.

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – للإمام يحي بن حمزة العلوي : ٢ / ٢٤٥ – تحقيق محمد عبد السلام شاهين – طبعة : دار الكتب العلمية بيروت – ١٤١٥هـ ١٩٩٥م .

ومعلوم لدى علماء العربية أن "كل زيادة على أصل الجملة تحمل معها زيادة على أصل المعنى" وهذا من سنن العرب في أساليبهم والجملة العربية تتكون من عنصرين أساسين: "مسند ومسند إليه"، وما زاد على ذلك إنما يأتي لقصد تأسيس معنى جديد في الأسلوب "فالكلام كلما زاد حكماً زاد تخصيصاً، وكلما زاد تخصيصاً زاد غرابة، وكلما زاد غرابة زاد إفادة"(١)، والقيد نوع من الزيادة الداخلة على الجملة قصداً لتكثير الفائدة وتأسيس معنى جديد وكلما زادت القيود في الجملة زاد معها فوائد الإسناد(٢).

وقد يذكر القيد في الكلام، ولا يكون الغرض منه تأسيس معنى جديد، أو مقيد للفعل ومخصص له، وإنما يكون ذكره لغرض بلاغي رمي إليه وأراده المتكلم من ذكره، وذلك كثير في لغة العرب وأساليبهم، لاسيما في أحاديث النبي– ﷺ – الذي أُعْطِيَ جوامع الكلم وفواتحه.

والعدد قيد يأتي في الكلام ليدل بمنطوقه ومفهومه على معدود حسابي معين، قيد أفراده فيه لا يتعداه إلى غيره، وهذا هو الأصل في استخدامه في الكلام، ومن ثم كان كثير الوجود في الأساليب العربية لاسيما في القرآن الكريم الذي نزل على طريقة العرب وأساليبهم في الكلام

ولكن قد يأتي العدد في الكلام بمنطوقه ولا يدل مفهومه على عدد معين، ولم يكن الغرض من ذكره الحصر أو قيد أفراد معدودة فيه، وإنما يأتي لغرض آخر رمت إليه البلاغة النبوية، وهذا كثير شائع في الأساليب العربية، كأن تقول: نصحتك خمسين مرة، وزرتك ألف مرة، فالأعداد –هنا – لم يقصد بها ما يفهم من منطوقها العددي، وإنما ذكرت لغرض المبالغة في كثرة القيام بالفعل وتكراره لحد المبالغة فيه.

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص: ٢/ ٣٢، ٣٣ط دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة– للخطيب القزويني: ٢/ ١١٤ ت محمد عبد المنعم خفاجي ط / دار الجبل–بيروت الثالثة ١٤١٤هـ–٩٩٣م.

وقد لفتني هذا الأسلوب البلاغي في البيان النبوي في سياقات مختلفة؛ ومواقع متنوعة، لم يأت القيد فيها مؤسساً لمعنى جديد، أو مكثراً للفائدة فأردت دراسة تلك الظاهرة دراسة بلاغية تحليلية، فجاء هذا البحث **بعنوان:("من بلاغة العدد غير المقيد لمعدوده في البيان النبوي أحاديث الصحيحين نموذجا")**.

وقد قام هذا البحث على دراسة السياقات النبوية المختلفة التي وقع فيها العدد بتلك الصورة في البيان النبوي سواء كان الحديث في باب العبادات، أو الأخلاق والمعاملات، أو الحديث عن الفتن ومشاهد القيامة؛ ولذلك للوقوف على بلاغة هذا الأسلوب النبوي، وتحديد قيمته البلاغية في الكشف عن المعنى، والتركيز عليه، وتحقيقه، وتقريره، والوقوف على الغرض الذي من أجله سيق المعنى في صورة هذا الأسلوب لتدرك في النهاية بعضاً من بلاغة النبي – ﷺ – حين اتخذ هذا الأسلوب وسيلة في إظهار أهدافه، وتوضيح أغراضه. ثم كان الحديث عن العدد غير المقيد في البيان النبوي بين التأثر والتأثير، وبيان كيف تأثر النبي – ﷺ – بأسلوب القرآن الكريم في استخدامه لهذا الأسلوب، ومدي تأثر الصحابة ورواة الحديث وأصحاب التصانيف الحديثية ببلاغة النبي – ﷺ – في استخدامه لهذا الأسلوب العربي.

والله الموفق

أ.م / أحمد محمود محمد الجبالي

Research Summary

Praise be to Allah, the Lord of the Worlds, and prayers and peace be upon the master of every world and consecrated, and the Imam of every messenger and prophet of our master Muhammad ... and after

"The words of the prophetic statement, and one of the characteristics of the Prophet, of the mosques of the word, and the commandments and commandments," the words in the prophetic Sunnah of the provisions of the legitimacy, and moral judgment is still the meanings extracted from them soft on the repetition of years and the length of time, This is what the Prophet's statement will be, no matter how long it takes, and it will change the tongues and the senses, and it will not be lost, The Arabs and the gurus of the words of the Prophet, and then the researchers and scholars Their side to the Prophet's Hadiths are looking for the beauty of the word in its place, and the accuracy of the expression without it, as well as the sentences in the Prophet's statement and its beauty in its context and majesty in its meanings, what no other - no matter how diligent - can perform the meaning that it came out of. Sadiq infallible, the spokesman of the right, the path to the path of adult, intended to stand on the purpose of God of creation.

It is known to the Arab scholars that "every increase in the origin of the sentence carries with it an increase in the origin of the meaning." This is from the age of the Arabs in their styles and the Arabic sentence consists of two basic elements: "predicate and assign." What is more, "The more words the more judgment increased the allocation, and the more the allocation of the more strange, the more strange the increased benefit," and the type of increase in the sentence intentionally to increase interest and establish a new meaning and the more restrictions in the sentence increased the benefits of attribution.

It may be mentioned in the words of the Prophet, which was given to the mosques and the words of the words.

And this number is in the speech to indicate the nature and concept of the number of a specific account, the restriction of its members is not beyond it, and this is the origin in the use of speech, and then was a lot of presence in the Arab methods, especially in the Holy Quran, which came in the way of the Arabs and their methods of speech

But the number may come in terms of its meaning, and its meaning does not indicate a certain number. It is not intended to mention the limitation or restricting a few individuals in it. Rather, it comes for another purpose, which is attributed to the prophetic rhetoric. A thousand times, the numbers - here - did not mean what is understood from the numerical operative, but stated for the purpose of exaggeration in the frequency of doing already and repeated to exaggerate.

This approach has drawn me in the statement of the Prophet in different contexts; and the various sites, did not enter the founding of a new meaning, or interest-intensive study studied the phenomenon of the study of rhetorical analysis, came this research entitled: (From the eloquence of the number of unrestricted number in the Prophet's statement Ahaadeeth is a model.

This research has examined the various prophetic contexts in which the number was recorded in the Prophet's statement whether it is in the chapter on worship, morality or transactions, or talk about sedition and the scenes of the resurrection. Therefore, to find out the eloquence of this prophetic method and to determine its rhetorical value in revealing Meaning, focus on it, achieve it, and report it, and find out the purpose for which the meaning will be drawn in the form of this method to finally understand some of the eloquence of the Prophet when this method was used as a means to show its objectives and clarify its purposes. And then talk about the number of unrestricted in the Prophet's

statement between the impact and influence, and how the Prophet was influenced by the style of the Koran in the use of this method, and the extent of the impact of the companions and narrators of Hadith and the owners of modern classifications of the Prophet's eloquence in the use of this Arab method.

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، حمدا لا يجب إلا له، ولا يليق إلا به، عظمت نعماؤه، وجل عن الإحاطة فضله وثناؤه، والصلاة والسلام على سيد كل عالم وتقي، وإمام كل رسول ونبي سيدنا محمد – ﷺ – ... وبعد

فإن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة مصدران أصيلان للشريعة الإسلامية، وطوق النجاة إلى طريق الرشاد؛ ولهذه المكانة العالية اتجه العلماء باختلاف مذاهبهم، وتنوع علومهم لدراسة ألفاظ القرآن الكريم والوقوف على ما في ألفاظه وأساليبه من سمات بلاغية، ومظاهر إبداعية يعجز البشر الإتيان بمثله، أو بأقل سورة منه ولو اجتمعوا على قلب أعلمهم، أو عقل أبلغهم، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾(١).

والسنة النبوية المطهرة تخرج من مشكاة القرآن الكريم، وتتبع بلاغته من معين ألفاظه وتراكيبه، ومن ثم اتجه شرَّاح الحديث الشريف إلى مدارسة أحاديث النبي – ﷺ –شرحا وتعليقا وتحقيقا، بيد أن دراستهم لم تكن في المقام الأول تعتني بالجانب البلاغي والتحليل الفني لألفاظه وأساليبه، وإنما كانت وجهتهم في ذلك مع تعددها إلى استنباط الأحكام، كالإمام النووي في شرحه لأحاديث صحيح مسلم، أو الوقوف إلى معاني المفردات والتراكيب، كالإمام ابن حجر العسقلاني، والإمام العيني في شروحهما لأحاديث صحيح البخاري، ومنهم من أسهم بالنذر اليسير في شرحه ببعض الإسهامات البلاغية التي كانت تنتشر لماما في ثنايا شرحه، كالإمام الطيبي، والإمام الكرماني في شرحهما لأحاديث صحيح البخاري، ولم توجد – على حد معرفتي – دراسة بلاغية مستقلة في البيان عند العلماء القدامى سوى "المجازات النبوية للشريف الرضي"، والذي حوى جملة من أحاديث النبي – ﷺ – دارسا لها دراسة

(١) سورة: الإسراء: آية: ٨٨.

بلاغية إلا أنها في غالب الأحيان كانت تعليقات يسيرة تفتقر إلى جانب التحليل البلاغي الكاشف عن السر في جمال وموطن الحسن في التعبير النبوي للوقوف على بدائع حكمه – ﷺ –.

أما في العصر الحديث فقد كثرت الدراسات البلاغية، وتنوعت مقاصدها تطبيقا وتحليلا للظواهر البلاغية في أحاديث النبي– ﷺ –، أو عرض المسائل البلاغية في عند شرَّاح الحديث النبوي الشريف، وبيان وجه الشارح البلاغية، ومذهبه الفني ولا غرو في ذلك " فإن الألفاظ في السنة النبوية الدالة على الأحكام الشرعية، والحكم الأدبية لا تزال المعاني المستخرجة منها غضة طرية على تكرر الأعوام وتطول الزمان، ومع ذلك فإنهم ما أحاطوا بغايتها، ولا بلغوا نهايتها[1]، وسيظل البيان النبوي مهما طال الزمن، وتبدلت الألسن والفطن، معينا لا ينضب، وطريقا لا يضل عليه هاد، ولا يعدم الخير فيه داع، ولا يغلق على الفهم منه باب عند قوم إلا لقلة معرفة منهم بلسان العرب وَغَوْرِ كلام النبي – ﷺ –.

و معلوم لدى علماء العربية أن "كل زيادة على أصل الجملة تحمل معها زيادة على أصل المعنى" وهذا من سنن العرب في أساليبهم والجملة العربية تتكون من عنصرين أساسين: "مسند ومسند إليه"، وما زاد على ذلك إنما يأتي لقصد تأسيس معنى جديد في الأسلوب " فالكلام كلما زاد حكماً زاد تخصيصاً، وكلما زاد تخصيصاً زاد غرابة، وكلما زاد غرابة زاد إفادة" [2]، والقيد نوع من الزيادة الداخلة على الجملة قصداً لتكثير الفائدة وتأسيس معنى جديد وكلما زادت

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – للإمام يحي بن حمزة العلوي: ٢ / ٢٤٥ – تحقيق محمد عبد السلام شاهين – طبعة: دار الكتب العلمية بيروت – ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

(٢) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص: ٢/ ٣٢، ٣٣ ط دار الكتب العلمية، بيروت.

القيود في الجملة زاد معها فوائد الإسناد[1]، فإن "تقيد الفعل وما يشبهه من اسم الفاعل والمفعول وغير ذلك بمفعول مطلق، أو به، أو فيه، ونحوه من الحال والتمييز والاستثناء، فلتربية الفائدة"[2]، وليست تلك القيود ثقلاً في التعبير، وإنما هي وسيلة لزيادة المعنى، وتكثير الفائدة من الكلام، هذا هو الأصل أو الغالب في القيد.

وقد يذكر القيد في الكلام، ولا يكون الغرض منه تأسيس معنى جديد، أو مقيد للفعل ومخصص له، وإنما يكون ذكره لغرض بلاغي رمي إليه وأراده المتكلم من ذكره، وذلك كثير في لغة العرب وأساليبهم، لاسيما آيات الذكر الحكيم، وكلام سيد المرسلين، وكلام العرب شعرا ونثرا.

وقد لفتني هذا الأسلوب البلاغي في البيان النبوي في سياقات مختلفة؛ ومواقع متنوعة، لم يأت القيد فيها مؤسساً لمعنى جديد، أو مكثراً للفائدة فأردت دراسة تلك الظاهرة دراسة بلاغية تحليلية، فجاء هذا البحث بعنوان: "بعنوان: **(من بلاغة العدد غير المقيد لمعدوده في البيان النبوي أحاديث الصحيحين نموذجا)**.

وقد قام هذا البحث على دراسة السياقات النبوية المختلفة حين اتخذ هذا الأسلوب وسيلة في إظهار أهدافه، وتوضيح أغراضه، ومن ثم جاء هذا البحث في مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة.

فالمقدمة: تحدثت عن أهمية البحث، وأسباب اختياره، والمنهج المتبع.

وأما التمهيد: فقد اشتمل على تحرير مصطلحات عنوان البحث .

المبحث الأول: العدد غير المقيد في أحاديث العبادات .

المبحث الثاني: العدد غير المقيد في أحاديث المعاملات والأخلاق .

المبحث الثالث: العدد غير المقيد في أحاديث الفتن وأهوال الآخرة .

---

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة– للخطيب القزويني: ٢/ ١١٤ ت محمد عبد المنعم خفاجي ط / دار الجبل–بيروت الثالثة ١٤١٤هـ–٩٩٣م.

(٢) المطول– سعد الدين التفتازاني: ١٥١ ط المكتبة الأزهرية للتراث.

المبحث الرابع: العدد غير المقيد في البيان النبوي بين التأثر والتأثير.

ثم الخاتمة وبها النتائج والتوصيات، ثم الفهارس الفنية المتنوعة.

وإذا كان من اللازم لكل بحث أن يكون له نظام يسير عليه الباحث وطريق يسير عليه في بحثه وهو ما يسمى بالمنهج، فالذي ينبغي التعويل عليه في هذا البحث هو المنهج التحليلي الذي يعتمد على النظرة الكلية للنص النبوي، وتحليله في ضوء المقام الذي سيق له الحديث النبوي الشريف.

وإنني بهذه الدراسة أكون قد حاولت أن أقتبس من هذا النور، وإن بدا لي التقصير فحسبي أني قد عزمت بلوغ الأماني، والنية تعظم العمل، ومن كتب قبلي فكمل؟! فالله أسأل أن أكون من المخلصين، وأن يغفر لي كل تقصير، والحمد لله رب العالمين.

واللّه الموفق

أ.م / أحمد محمود الجبالي

التمهيد

معلوم لدى علماء العربية أن " كل زيادة على أصل الجملة تحمل معها زيادة على أصل المعنى" وهذا من سنن العرب في أساليبهم، كما تقول: زَيْدٌ لَيْثٌ إنَّما شَبَّهْتَهُ بليثٍ في شَجاعته. فإذا قال: زيدٌ كاللَّيثِ الغَضبان فقد زاد المعنى حُسناً وكسا الكلامَ رونقا، وذلك لأن كل زيادة في المبنى يدل على زيادة في المعنى.(١) خاصة في الخطاب القرآني المعجز. والجملة العربية تتكون من عنصرين أساسين: "مسند ومسند إليه"، وما زاد على ذلك إنما يأتي لقصد تأسيس معنى جديد في الأسلوب "فالكلام كلما زاد حكماً زاد تخصيصاً، وكلما زاد تخصيصاً زاد غرابة، وكلما زاد غرابة زاد إفادة.(٢)

والقيد نوع من الزيادة الداخلة على الجملة قصداً لتكثير الفائدة وتأسيس معنى جديد وكلما زادت القيود في الجملة زاد معها فوائد الإسناد(٣).

جاء في المطول: "وأما تقيد الفعل وما يشبهه من اسم الفاعل والمفعول وغير ذلك بمفعول مطلق، أو به، أو فيه، ونحوه من الحال والتمييز والاستثناء، فلتربية الفائدة(٤).

"فإذا عديت الفعل إلى المفعول، فقلت: "ضرب زيد عمراً "كان غرضك أن تفيد التباس الضرب الواقع من الأول بالثاني ووقوعه عليه، فقد أجمع الفاعل والمفعول في أن عمل الفعل فيهما إنما كان من أجل أن يعلم التباس المعنى الذي اشتق منه بهما فعمل الرفع في الفاعل ليعلم التباس الضرب به من جهة وقوعه عليه، ولم يكن ذلك ليعلم وقوع الضرب في نفسه، بل أريد

---

(١) ينظر: فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي: ٢٧٠، ت: عبد الرزاق المهدي ط: إحياء التراث العربي: الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

(٢) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص: ٢/ ٣٢، ٣٣ط دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة– للخطيب القزويني: ٢/ ١١٤ ت محمد عبد المنعم خفاجي ط / دار الجبل–بيروت الثالثة ١٤١٤هـ–٩٩٣م.

(٤) المطول– سعد الدين التفتازاني: ١٥١ ط المكتبة الأزهرية للتراث.

الإخبار بوقوع الضرب ووجوده في الجملة من غير أن ينسب إلى فاعل أو مفعول، أو يتعرض لبيان ذلك، فالعبارة فيه أن يقال: "كان ضرب" أو "وقع ضرب" أو "وجد ضرب"، وما شاكل ذلك من ألفاظ تفيد الوجود المجرد في الشيء"(١) وعلى ذلك كلما أردنا تكثير الفائدة من الكلام أوردنا على الفعل قيداً آخر، وليست تلك القيود ثقلاً في التعبير، وإنما هي وسيلة لزيادة المعنى، وتكثير الفائدة من الكلام، وهذا يرجع في ذاته على القول بأن كل زيادة في المبنى يتبعها زيادة في المعنى– كما تقدم– هذا هو الأصل في القيد، أو الغالب عليه.

وقد يذكر القيد ولا يكون الغرض منه تأسيس معنى جديد، أو تقييد للفعل ومخصص له، وإنما يكون ذكره لغرض بلاغي رمي إليه وأراده المتكلم من ذكره، وذلك كثير في لغة العرب وأساليبهم، لا سيما آيات الذكر الحكيم التي نزلت على طريقة العرب في كلامهم وأساليبهم قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾(٢)، وكلام سيد المرسلين سيدنا محمد – ﷺ – تأثرا ببلاغة النظم القرآني المعجز، وبيانه المحكم، وأسلوبه المتقن، وسياقاته مفرداتها المنتقاة انتقاء في غاية الدقة والإحكام

مفهوم القيد:

يدور المعنى اللغوي لمادة "ق ي د" في المعاجم اللغوية والاستعمال العربي حول معاني: المنع والحبس والحصر، يقال: قيدت الدابة: أي حبستها وقيدت الأسير: أي منعته من حريته.

وكلام مقيد: أي محصور على معنى واحد لا يتعداه على غيره، وضده كلام مطلق أي مرسل يحمل أكثر من معنى.

---

(١) دلائل الإعجاز– عبد القاهر الجرجاني: ١٥٣، ١٥٤، تحقيق / محمود محمد شاكر طبعة: مطبعة المدني، القاهرة، – مطبعة المدني، جدة –١٤١٣–١٩٩٢م.

(٢) سورة يوسف: آية: ٢.

ومن المجاز، فرس قيد الأوابد "الحمر الوحشية"[١]: أي أنه لسرعته كأنه قيدها فلا تستطيع مجاراته،ومنه قول امرئ القيس[٢]:

وقد أغتدي والطيرُ في وُكُناتها ... بمنْجَردٍ قَيْدِ الأوابدِ هَيْكَلِ[٣]

وقوله أيضا:-

بمُنْجَردٍ قَيْدِ الأوَابدِ لاحَهُ ... طِرادُ الهَوَادِي كلَّ شَأوٍ مُغَرِّبِ[٤]

جاء في لسان العرب "القيد معروف، والجمع أقياد وقيود، وقد قيده يقيده تقييدًا، وقيدت الدابة، وفرس قيد الأوابد: أي انه لسرعته كأنه يقيد الأوابد وهي الحمر الوحشية بلحاقها"[٥]:

أما المعنى الاصطلاحي للقيد: فهو أن يذكر الشيء باسمه ويقرن به صفة، أو شرطا، أو زمان، أو عدد، أو شيء يشبه ذلك فيكون ذلك القرين زائدا في المعنى[٦]، يقول ابن عقيل في بيان الفرق بين المطلق والمقيد "المطلق ما علق الحكم عليه باسمه الأعم، والمقيد ما علق على اسم بنعت، أو صفة، أو غير ذلك[٧] فالمطلق عنده شبيه بالعموم، والمقيد شبيه بالحصر والتخصيص.

---

(١) أساس البلاغة: للزمخشري: مادة: "قيد" / ٢٨٨ ت، محمود فهمي حجازي ط الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسة الذخائر ٢٠٠٣.

(٢) امرؤ القيس بن حجر بن مرو الكندي، من شعراء الطبقة الأولى، هاجر إلى قرية من قرى الروم وقام بها ومات فيها، وقبر هناك [الشعر والشعراء لابن قتيبة: ١ /١٠٥ ت احمد محمد شاكر ط، دار المعارف، الثانية ١٩٦٧].

(٣) ديوان امريء القيس: ١٦ ت / عبد الرحمن المصطاوي ط، دار المعرفة – بيروت – الثانية، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤ م

(٤) السابق: ٧٥.

(٥) لسان العرب: مادة: قيد ط، دار لسان العرب

(٦) ينظر: الصاحبي لابن فارس: ٣١٦ تحقيق: السيد أحمد صقر ط، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر ٢٠٠٣.

(٧) ينظر: الواضح في أصول الفقه: لأبي الوفاء علي بن عقيل البغدادي:١/ ٢٥٦، تحقيق عبد الله التركي، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى ١٤٢٠هـ.

ومن هنا تظهر العلاقة بين المدلول اللغوي والمعنى الاصطلاحي للقيد؛ فإن دلالة القيد على معنى الحبس والمنع والحصر ظاهر في المعنى الاصطلاحي؛ لأن الكلام كلما قرن بمتعلق أو غيره كان المعنى محصوراً في ذلك المتعلق ومقيداً عليه ولا يحمل أكثر من معنى القيد، فهو غير مطلق أو مرسل، فالكلام إذا كان مطلقاً ذهب في تأويله العقل كل مذهب. وتتفاوت مراتب المقيد في تقييده باعتبار قلة القيود وكثرتها، فما كانت قيوده أكثر، كانت رتبته في التقييد أعلى، وهو فيه أدخل، شريطة أن يقتضيه الحال، ويطلبه المقام بيد أن ثمة خلاف بين النحويين والبلاغيين في فائدة القيد "أو المتعلقات".

فالنحويون يرون أنها من باب الفضلة التي يمكن الاستغناء عنها في الجملة، لكونها تأتي- عندهم- بعد إتمام الفائدة، كالأحوال والنعوت، وغيرها، أما البلاغيون فإنهم يرون أن القيود لا تختلف عن أركان الجملة من حيث الفائدة، والأسرار التي تكمن وراءها، فلا فرق بين الفاعل والحال، ولا بين المبتدأ أو الصفة، فكل له فائدته ومقامه الذي يستدعيه، فإذا استدعاه المقام كان الكلام بليغا، وله أسراره وفوائده، وإذا لم يستدعه المقام، ولم تتطلبه الحال، كان خارجاً عن حد البلاغة، وكان كلاماً مردوداً سواء أكان ركناً في الجملة، أم قيداً من القيود

مفهوم العدد:

والعد: إحصاء الشيء على سبيل التفصيل قال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا**﴾[1] وقيل: هو ما وضع لكمية الآحاد، أي الأفراد.[2]، وقيل: هو ما ساوى نصف مجموع حاشيتيه الصغرى والكبرى على السواء، كـ"الاثنين "فإن حاشيته

(١) سورة مريم: آية: ٩٤.

(٢) التعريفات: للجرجاني: ١٩٢، تحقيق دكتور /عبد الرحمن عميرة، ط عالم الكتب، الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

السفلى: (واحد) وحاشيته الكبرى: (ثلاثة) ومجموع الحاشيتين (أربعة)، ونصف الأربعة: (اثنان) وهو المطلوب، والمراد بالعدد هنا الألفاظ الدالة على المعدود"[١] ويعني هذا أن أصل العدد في اللغة العربية إنما يأتي لقصد حصر أفراد معدوده فيه وتقييد المعنى به لا يتعداه إلى غيره، ولا يفهم من اللفظ سواه، فيقال: عندي ثلاثة رجال، وخمس نساء، وعشرة جنيهات، وخمسة عشرة كتابا، وهكذا، فإن المفهوم من منطوق الأعداد وجود ذلك العدد، وحصر أفراد جنسه في معدوده، فـ "من السنة البيانية أن يسند أمر مقيد بعدد إلى أمر آخر، وهذا التقييد يكون لأغراض بيانية متعددة، قد يكون منها حصر ما حكم به فيما قُيِّد بهذا العدد بحيث لا يتجاوزه إلى غيره، وحينئذ يفهم المتلقي بالفطرة أن ما زاد على هذا العدد أو نقص عنه لا يترتب عليه ذلك الحكم، وهو ما يعرف بمفهوم العدد"[٢]، وهو بهذا المفهوم الصريح كثير الوجود في البيان النبوي الشريف.

"والذي يحسن تحريره ألا يطلق القول بمفهوم كل عدد ولاسيما خطابات الناس، فغير قليل ما ترد الأعداد في بيانهم على نهج المبالغة حتى شاع فيهم أن العدد لا مفهوم له"[٣] ولهذا المفهوم لمصطلح العدد مظان متنوعة وصور متعددة ومختلفة في بيان النبي محمد . ﷺ .، وذلك مثل قوله ـ ﷺ في بيان فضل صدقة المقل: « سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ»[٤]، فالعدد فيه لم يكن مقصودا في ذاته ولم يأت قيدا لأفراد معدوده فيه وإنما جاء لغرض

(١) ينظر:التصريح بمضمون التوضيح، للشيخ خالد الأزهري ٤/ ٤٥٩ط، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان – الأولى، ١٤٢١، ٢٠٠٠م .

(٢) سبل استنباط المعاني من القرآن والسنة "دراسة منهجية تأويلية ناقدة – دكتور / محمود توفيق محمد سعد، صـ ٤٨٩، طبعة: مكتبة وهبة، الأولى: ١٤٣٢هـ، ٢٠١١ م.

(٣) السابق نفس.

(٤) سنن النسائي: المسمى بـ (المجتبى من السنن) للإمام النسائي باب: جهد المقل من حديث أبي هريرة – ﷺ– ٥ / ٢٥٩، تحقيق / عبد الفتاح أبوغدة، ط / مكتبة المطبوعات الإسلامية – حلب، الثانية، ١٤٠٦هـ– ١٩٨٦م.

بلاغي قصده المتكلم من كلامه؛ وهو المبالغة في الوصف، مع تأكيد المعنى وتقريره في النفس.

ولهذا فإن الإخبار بالعدد – هنا – لا ينافي غيره، بمعنى أن الحكم بعد العدد ثابت لا يتغير عما كان قبله، وإنما الغرض من ذكر العدد المبالغة في وصف الشيء بالكثرة والقرآن الكريم نزل بلغة العرب وطريقة أساليبهم في الكلام، وتربى على ألفاظه النبي محمد . ﷺ . ومن ثم كان لمثل هذا النوع في بيانه . ﷺ . مواضع متنوعة بأغراض مختلفة، وهذا ما سيتضح في ثنايا هذا لبحث بإذن الله – تعالى.

المبحث الأول

العدد غير المقيد في أحاديث العبادات

العبادة هي العلاقة الوثيقة بين العبد وخالقه، والوسيلة الأصيلة لتواصل الأرض بالسماء، ومن ثم كانت الحاجة إلى مزيد شرح وتوضيح؛ حتى تكون العبادة على بصيرة دون نقص أو زيف، ومن ثم كان البيان النبوي كله تشريعا ونورا يهتدي به، ويقتفى أثره " فكلامه – ﷺ –يجري مجرى عمله، كله دين وتقوى، وكله روحانية وقوة وحياة"(١)، فكان النبي – ﷺ – في بيان الحكام الشرعية أديبا مبدعا، وبلاغيا معجزا، لم يسبقه في ذلك أحد من الأنبياء والرسل،" فإذا كان البيان صفة كل رسول، فإن البلاغة صفة محمد– ﷺ – وحده"(٢).

والعبادات نوعان: فعلية، وقولي، وقد وقع أسلوب العدد غير المقيد لمعدوده في أحاديث العبادات موقعا حسنا فأوضح مفهومها، وأكد مضمونها، في صورة واضحة المعالم، دون أن يشيبها خفاء أو تقصير، ومن ذلك ما ورد في فضل صلاة الجماعة: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ(٣)، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ – ﷺ – يَقُولُ: «**صَلاَةُ الجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلاَةَ الفَذِّ بِخَمْسٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً**»(٤)، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ

(١) من وحي القلم – مصطفى صادق الرافعي: ٣ / ٩ طبعة مكتبة الإيمان – المنصورة
(٢) قطوف من أدب النبوة الشيخ / أحمد حسن الباقوري: ٢ / ١٢٩ ط: كتاب اليوم
(٣) سعد بن مَالِكِ بْنِ سِنَانِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عُبَيْدِ بن الأبجر، صحابي جليل، كان كثير الحديث – توفي بالمدينة سنة اثنتي عشرة ومائة وهو ابن سبع وسبعين سنة.
[ينظر: الطبقات الكبرى – أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد: ٢٠٥/٥ – تحقيق: محمد عبد القادر عطا– ط: دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى، ١٤١٠هـ–١٩٩٠م].
(٤) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله – ﷺ – وسننه وأيامه = صحيح البخاري المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري – كتاب الصلاة – باب فضل صلاة الجماعة رقم (٦٤٦) تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر– الناشر: دار طوق النجاة – الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ

بْنِ عُمَرَ[1]: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ: «**صَلاَةُ الجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلاَةَ الفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً**»[2].

والمعنى في الحديثين أن صلاة الرجل في جماعة تفضل عن صلاته منفردا في بيته، وهو ترغيب في المحافظة على الجماعات؛ لما فيها من الاجتماع الهادف إلى وحدة المسلمين وتعارفهم وتآلفهم على الطاعة المثمرة المحبة في الله، والاجتماع على طاعته، ومن ثم اشتمل في صلاة الجماعة فوائد جمة، تستوجب الفضل الجزيل.

وعلى هذا المعنى ذهب شراح الحديث في وجه من الوجوه: أن العدد لم يأت لغرض تقييد الفضل في تلك الأعداد، والوقوف عند حد منطوقها، وإنما المراد المبالغة في إظهار الفرق بين صلاة الجماعة وصلاة الرجل منفردا، يقول النووي معللا اختلاف العدد في الروايتين: "والجمع بينها من ثلاثة أوجه: أحدها أنه لا منافاة بينها فذكر القليل لا ينفي الكثير ومفهوم العدد باطل عند جمهور الأصوليين، والثاني أن يكون أخبر أولا بالقليل ثم أعلمه الله تعالى بزيادة الفضل فأخبر بها والثالث أنه يختلف باختلاف أحوال المصلين والصلاة فيكون لبعضهم خمس وعشرون ولبعضهم سبع وعشرون بحسب كمال الصلاة ومحافظته على هيآتها وخشوعها وكثرة جماعتها وفضلهم وشرف البقعة ونحو ذلك"[3].

---

(١) عبد الله بن عمر بن الخطاب – صحابي جليل – كان إسلامه بمكّة مع الإسلام أبيه عُمَر بْن الخطاب ولم يكن بلغ يومئذٍ. وهاجر مع أَبِيهِ إِلَى المدينة، كثير الحديث عن رسول الله – ﷺ – مَاتَ سنة أَربع وَسبعين بِمَكَّة [الطبقات الكبرى:٤/١٠٥].

(٢) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله – ﷺ – المسمى بصحيح مسلم لمسلم بن الحجاج النيسابوري – كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةَ بَابُ فَضْلِ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ، وَبَيَانِ التَّشْدِيدِ فِي التَّخَلُّفِ عَنْهَا رقم (٦٤٩) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج – أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي: ٥ /١٥١ – ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت الثانية، ١٣٩٢هـ .

وعبارة النووي: "ومفهوم العدد باطل عند جمهور الأصوليين"، يشير إلى أن هذا الوجه يرى أنه لا مفهوم للعدد، وأنه غير مقيد على ما ذكر في الروايتين، وإنما الغرض منه المبالغة في كمال وتمام الأجر من الله تعالى وهو ما ذهب إليه بدر الدين العيني في قوله: "إن مراتب الأعداد آحاد وعشرات ومئات وألوف، والمئات من الأوساط، وخير الأمور أوسطها، والخمسة والعشرون ربع المائة، وللربع حكم الكل "[١]، وقول العيني: "وللربع حكم الكل"، إشارة إلى أن العدد المذكور في الرواية الأولى "بخمس وعشرين درجة " العدد فيها ورد لمفهوم بعيد عن التقييد بالمعدود، وإنما لمح فيه معنى الكمال والتمام الباعثان على الأفضلية في قوله: "والمئات من الأوساط، وخير الأمور أوسطها"، ويؤيد ذلك اختلاف الروايات في العدد بين خمس وعشرين، وسبع وعشرين، وبضع وعشرين"[٢]، والْبِضْع: مَا بَين الْوَاحِد إِلَى الْعشْرَة. وَلَفْظَة "بخمس وبِسبع" تَفْسِير لَهُ، كما حدث اختلاف في تمييز العدد بين خمس وعشرين جزءا، وسبع وعشرين درجة، وقد ذكر ابن دقيق العيد طرق الجمع بين اختلاف التمييز بقوله قد ورد في هذا الحديث التفضيل "بسبع وعشرين درجة" وفي غيره التفضيل" بخمس وعشرين جزءا "فقيل في طريق الجمع: إن الدرجة أقل من الجزء، فتكون الخمس والعشرون جزءا سبعا وعشرين درجة. وقيل: بل هي تختلف باختلاف الجماعات، وأوصاف الصلاة. فما كثرت فضيلته عظم أجره. وقيل: يحتمل أن يختلف باختلاف الصلوات. فما عظم فضله منها عظم أجره. وما نقص عن غيره نقص أجره "[٣].

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري– بدر الدين العينى: ٤ /٢٦٠ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) كما هو ثابت في صحيح ابن خزيمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة. بَابُ ذِكْرِ حَطِّ الْخَطَايَا وَرَفْعِ الدَّرَجَاتِ بِالْمَشْيِ إِلَى الصَّلَاةِ مُتَوَضِّيًا رقم (١٤٩٠) – تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي– ط: المكتب الإسلامي – بيروت

(٣) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام: ابن دقيق العيد: ١ / ١٨٨ باب تساوي الجماعات في الفضل – مطبعة السنة المحمدية – بدون طبعة وبدون تاريخ.

وقول ابن دقيق العيد: "فما كثرت فضيلته عظم أجره "وقوله: "وما نقص عن غيره نقص أجره"، مفهومه المنطوق به أن العدد في الروايات على غير منطوقه، كما أن اختلاف تمييزها يوحي بذلك، فالأصل بيان عظم الأفضلية في الأجر، وبيان الفرق بين صلاة الرجل في بيته منفردا، وصلاته في جماعة، وتلك المعاني لا يستطيع الوقوف على مرادها إلا من له معرفة بلسان العرب وَغَوْرِ كلام النبي – ﷺ –.

وقد ذُكِرتْ وجوه كثيرة تعليلا للعدد في الروايتين، منها ما يمكن اعتماده، ومنها مالا يمكن قبوله؛ لغلوه في استنباط علته، ولعل الأقرب في ذلك ما ذكرته من كون العدد في الروايتين غير مقصود لمنطوقه، والغرض منه المبالغة في إثبات كمال الثواب والفضل الحسن لمن صلى في جماعه وهذا ما يتناسب مع عنوان الباب لدى البخاري ومسلم وهو بيان فضل صلاة الجماعة، وَبَيَانِ التَّشْدِيدِ فِي التَّخَلُّفِ عَنْهَا، ومقام الترغيب أو الترهيب يحتاج إلى عنصر المبالغة شحذا للهمم، وأخذا بالقلوب إلى مراد الله من الخلق، وإن كنا لا نمنع اجتهادات الشراح، ولا نرد ما ذهبوا إليه ما دام خاليا من التكلف والغلو.

ومما يعلو من شأن المبالغة في وصف الفضل بالكثرة ذلك الطباق الكائن بين لفظتي الجماعة والفذ، تلك المطابقة التي تزيد من تعبئة الشعور النفسي عند المكلف، وما يتركه لفظ " الفذ " بمعنى الوحدة أو الواحد، كما هو موجود في رواية: «صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَةِ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ وَحْدَهُ سَبْعًا وَعِشْرِينَ»[1] وما يتركه من الوحشة والنفور والتقوقع أو التشرذم بسبب هجر الجماعة، وهذا ما يرفضه الإسلام، ولولا الجمع بين المتضادين ما طرق هذا المعنى نفس السامع ولله در القائل:

(١) صحيح مسلم – كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةَ بَابُ فَضْلِ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ، وَبَيَانِ التَّشْدِيدِ فِي التَّخَلُّفِ عَنْهَا رقم (٢٥٠).

وَنَدِيمُهُمْ وبه عَرَفْنَا فَضْلَهُ ... وبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأَشْيَاءُ[1]

وقيام الليل من أفضل ما يتقرب به العبد بعد الفريضة، ومن ثم ناسب أن يأتي هذا الأسلوب للكشف عن ماهيتها، وكيفية أدائها وذلك فيما روي عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ – ﷺ –. وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ، مَا تَرَى فِي صَلاَةِ اللَّيْلِ، قَالَ: **صَلاَةُ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى، فَإِذَا خَشِيَ أَحَدُكُمُ الصُّبْحَ صَلَّى رَكْعَةً وَاحِدَةً تُوتِرُ لَهُ مَا قَدْ صَلَّى**»[2]

معلوم أن الجمع بين العدد والمعدود يكون فيما وراء الإفراد والتثنية لبيان ذلك العدد فيقال: عندي دراهم خمسة، وأولاد ستة، وقرأت من الكتب سبعة ؛ وذلك لأن المعدود لا يدل على عدده الخاص به مفهوماً أو منطوقاً، ومن ثم يحتاج الأمر معه إلى ذكر عدده ليوضحه ويقيد أفراد معدوده فيه، أما صيغتا الأفراد والتثنية فإن المعدود فيها يدل على عدده مفهوما من صيغتي الأفراد والتثنية فيقال قرأت كتاباً، وعندي ولدان، واشتريت الكتاب بدرهمين.. وهكذا. فإذا جاء بعدهما العدد صراحة فلا يكون مقيداً أو مخصصاً لمعدوده، أو قصيداً إلى قصر أفراده في عدده، وإنما يكون مجيئه لغرض بلاغي رمى إليه المتكلم من كلامه وهو تأكيد المعنى في نفوس المخاطبين وتقريره بداخلهم.

فالعدد في قوله – ﷺ –: " صَلَّى رَكْعَةً وَاحِدَةً " لا يؤسس معنى جديداً أو مفهوما زائداً على أصل مدلول المعدود، وإنما جيء به لغرض التأكيد والتقرير للمعنى في نفوس المخاطبين، فذكر العدد "واحدة" جاء توكيداً لصيغة الإفراد المفهومة من لفظ "ركعة "، وبذلك يكون هذا المعنى التشريعي قد وصل على المخاطب في صورتين:

---

(١) لأبي الطيب المتنبي في مدح سيف الدولة الحمداني: ينظر ديوانه بشرح العكبري: ٢٢/١ – تحقيق مصطفى السقا – عبد الحفيظ شلبي – ط دار المعرفة بيروت.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الصلاة: باب ما جاء في الوتر رقم (٩٩٠) – وصحيح مسلم كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ – باب صَلَاةُ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى، وَالْوِتْرُ رَكْعَةٌ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ رقم (٧٤٩).

أولها: الدلالة النصية، وهو ما يفهم صراحة من منطوق اللفظ الدال على العدد إفراداً.

ثانيها: الدلالة الضمنية المفهومة من اللفظ المعدود الدال على الإفراد ضمنا. وهذا يجعل المعنى يصل إلى المخاطب في صورة واضحة جلية ويدخل في قلبه دخول المأنوس توضيحاً وتفسيراً، ويرسخ في الذهن تأكيدا وتقريراً، وقد قيل " عِلَمَانِ خَيْرٌ مِنْ عِلْمٍ واحد"(١).

وإنما أكد النبي – ﷺ –: قوله: " صَلَّى رَكْعَةً وَاحِدَةً " خشية الإطالة في الوتر، وهي نافلة، فتضيع صلاة الصبح وهي فريضة، وأقل الوتر ركعة واحدة، فجاء العدد هنا تأكيدا وتقريرا على كون المطلوب ركعة وتر لا ثلاث ركعات، ومن ثم يجب أن تكون منفصلة عما سبقتها من صلاة، بأن تسبق بجلوس للتشهد وتسليم، وتعد بذلك وترا لما سبقها، تأكيدا وتقريرا لصفة صلاة الليل المنصوص عليها في الحديث الشريف بقوله – ﷺ –: "مَثْنَى مَثْنَى" بلا تنوين لأنه غير منصرف للعدل والوصف، وكرره العدد تأكيدا وتقريرا؛ لأنه في معنى ركعتين اثنين يتبعها ركعتان اثنان فتكون أربع ركعات، وقوله – ﷺ –: "تُوتِرُ لَهُ مَا قَدْ صَلَّى" " يدل على أن هذه الركعة الواحدة جعلت مجموع ما صلى قبلها وتراً، فيكون الوتر هو مجموع صلاة الليل الذي يختم بوتر"(٢). وإسناد الوتر إلى الركعة الواحدة في قوله – ﷺ –: "تُوتِرُ لَهُ مَا قَدْ صَلَّى"

---

(١) هنا مثل معناه: لأن تضيف على علمك الأول علماً حادثا خير من اكتفائك بمعرفتك. وأصله أن رجلاً وابنه سلكا طريقا، فقال الرجل يا بني: سل لنا عن الطريق: فقال الولد: إني به عالم، فقال الرجل: يا بني: "علمان خير من علم واحد" فصارت مثلاً. [ينظر: مجمع الأمثال للميداني: ٢٥٢/٢ تحقق محمد محي الدين عبد الحميد ط مصطفى البابي الجلي، مصر].

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري– زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي: ٩ / ١١٦ – تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود، وآخرين – ط: مكتبة الغرباء الأثرية – المدينة النبوية. – الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م

مجاز عقلي لعلاقة السببية فهو إسناد مجازي خشية أن توصف الصلاة بالبتيراء، وهي صفة صلاة مردودة غير مقبولة، قال عَبْدُ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ: "إِنَّمَا الْبُتَيْرَاءُ: أَنْ يُصَلِّيَ الرَّجُلُ الرَّكْعَةَ التَّامَّةَ فِي رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَقِيَامِهَا، ثُمَّ يَقُومُ فِي الْأُخْرَى وَلَا يُتِمُّ لَهَا رُكُوعًا وَلَا سُجُودًا وَلَا قِيَامًا، فَتِلْكَ الْبُتَيْرَاءُ".(١)

وحتى تكون تلك الصلاة صحيحة مقبولة لابد أن يعتريها صفات تحوطها من عدم القبول، منها ما هو ذاتي في الصلاة نفسها، ومنها ما هو خارج عن الصلاة وإنما هو أمر متعلق بأفعال صاحبها، ومن ثم أراد النبي – ﷺ – التأكيد على ذلك، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ(٢)، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ – ﷺ–: «**لاَ يُصَلِّي أَحَدُكُمْ فِي الثَّوْبِ الوَاحِدِ لَيْسَ عَلَى عَاتِقَيْهِ شَيْءٌ**»(٣)

والعاتق ما بين المنكب والعنق" وحكمته أنه إذا ائتزر به ولم يكن على عاتقه منه شيء لم يؤمن أن تنكشف عورته بخلاف ما إذا جعل بعضه على عاتقه ولأنه قد يحتاج إلى إمساكه بيده أو يديه فيشغل بذلك وتفوته سنة وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت صدره ورفعهما حيث شرع الرفع وغير ذلك لأن فيه ترك ستر أعلى البدن وموضع الزينة"(٤).

---

(١) السنن الكبرى– أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي – بَابُ الْوِتْرِ بِرَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ وَمَنْ أَجَازَ أَنْ يُصَلِّيَ رَكْعَةً وَاحِدَةً تَطَوُّعًا – المحقق: محمد عبد القادر عطا –: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان: الثالثة، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

(٢) أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي صاحب رسول الله – ﷺ – وأكثرهم حديثا عنه سكن المدينة، وبها كانت وفاته سنة سبع وخمسين.[ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة– أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير: ٦/ ٣١٣، وما بعدها، المحقق: علي محمد معوض – عادل أحمد عبد الموجود– الناشر: دار الكتب العلمية– الأولى: ١٤١٥هـ – ١٩٩٤ م].

(٣) صحيح البخاري: كتاب الصلاة: بَابٌ: إِذَا صَلَّى فِي الثَّوْبِ الوَاحِدِ فَلْيَجْعَلْ عَلَى عَاتِقَيْهِ رقم (٣٥٩) – وصحيح مسلم كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةَ – بَابُ الصَّلَاةِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ وَصِفَةِ لُبْسِهِ رقم (٢٧٧).

(٤) شرح النووي على مسلم: ٤ / ٢٣١.

والحديث الشريف جاء في سياق التأكيد على ستر العورة في الصلاة، وهذا التأكيد جاء على صورتين متعددتين يعضد بعضها بعضا

الصورة الأولى: بإثبات الياء في قوله – ﷺ –: "**لاَ يُصَلِّيَ أَحَدُكُمْ**" دلالة على النفي فهو إخبار عن حكم شرعي، أو هو نفي يحمل معنى النهي فيكون من وضع الخبر موضع الإنشاء، ويعبر بهذا الأسلوب حين يقتضي المقام اعتناءً بشأن المنهي عنه، وتأكيد طلبه، فيعبر عنه إخبارا(١)، وهذا المعنى التشريعي ذا أمر عظيم في الشريعة الإسلامية إذ عليه مدار صلاح واحد من أهم أركان الخمس وعمودها وهي الصلاة، "وإن في العدول عن النهي إلى النفي حثا على تحقيق هذا الطلب، وإشعارا بأن الأمر ينبغي أن يُتَمَثَّل، وأن يبادر إلى تحقيقه، حتى يصبح خبرا من الممكن أن يخبر عنه ويحكى"(٢)

وأما الصورة الثانية: فتتمثل في التعبير بالعدد غير المقيد لمعدوده في قوله: "**فِي الثَّوْبِ الوَاحِدِ**" وذلك لأن الوحدة معلومة من المعدود المفرد وضعا، ولا يحتاج إلى ما يكشفه، ولكن لما كان الحديث يحمل أحد المعاني ذا الخطر العظيم، والأمر الجلل في شأن الصلاة وشرط صحتها ناسب أن يُكْسَى ثوب التأكيد والتقرير للمعنى في نفس المخاطبين بالأحكام الشرعية المكتسبة من أدلتها الشرعية، وهذا الحديث الشريف أحد أدلتها الظاهرة، فناسب التأكيد والتقرير، وقد تحقق ذلك بوصول المراد إلى المخاطب منطوقا ومفهوما، حرصا من المشرع على اكتساب أكبر قدر من التركيز والإصغاء، حملا للمكلفين على الخطاب، وسرعة الامتثال به، بغية الكمال والتمام في أمر الصلاة.

---

(١) ينظر: الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم – دكتور / صبَّاح عبيد دراز صـ ١٠٣ مطبعة الأمانة مصر – الأولى ١٤٠٦هـ ١٩٨٩م.

(٢) ينظر: من بلاغة النظم القرآني – دكتور بسيوني عبد الفتاح فيود صـ ٢٥١، ٢٥٢ بتصرف – مطبعة الحسين الإسلامية – الأولى – ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

وإنما نهى النبي – ﷺ –: عن الصلاة في ثوب واحد، وأمر من صلى في ثوب واحد أن يجعله على عاتقيه إذا لم يكن متزرًا؛ لأنه إذا لم يكن متزرًا لم يأمن أن ينظر من عورة نفسه في صلاته، فإذا جعله على عاتقيه وخالف بين طرفيه أمن من ذلك، واستترت عورته، وإنما هذا في الثوب إذا كان واسعًا، فحينئذ يجعله على عاتقيه، وأما إذا كان ضيقًا، فإنه يتزر به، وهذا كله تأكيد في ستر العورة في الصلاة. "(١)

وفي رواية لهذا الحديث – عند البخاري – أيضا – ما روي عن أبي هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ –يَقُولُ: «**مَنْ صَلَّى فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ فَلْيُخَالِفْ بَيْنَ طَرَفَيْهِ**». (٢)، **وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ سَائِلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ –عَنِ الصَّلاَةِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –: «أَوَ لِكُلِّكُمْ ثَوْبَانِ»** (٣)

والفرق بين الروايات أن الرواية الأولى قامت على نفي الإتيان إلى الصلاة على هذه الصورة، والنفي هنا بمعنى النهي مبالغة في الذم والترهيب، والنهي – هنا– نهي كراهة لا نهي تحريم، خاصة وانه ورد في أحاديث كثيرة صلى الصحابة مع النبي – ﷺ – في ثوب واحد ولم يمنعهم من ذلك، فعلم أن الأمر لا حرمة فيه، وتصح الصلاة فيه إن أمن ستر العورة، ومنه ما ورد عَنْ جَابِرِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ فِي الصَّلاَةِ فِي الثَّوْبِ الوَاحِدِ، قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ – ﷺ – فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَجِئْتُ لَيْلَةً لِبَعْضِ أَمْرِي، فَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، وَعَلَيَّ ثَوْبٌ وَاحِدٌ، فَاشْتَمَلْتُ بِهِ وَصَلَّيْتُ إِلَى جَانِبِهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: «مَا السُّرَى يَا جَابِرُ»

(١) شرح صحيح البخارى لابن بطال– أبو الحسن علي بن خلف: ٢ / ٢٢ – تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم طبعة: مكتبة الرشد – السعودية، الرياض–: الثانية، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الصلاة: بَابٌ: إِذَا صَلَّى فِي الثَّوْبِ الوَاحِدِ فَلْيَجْعَلْ عَلَى عَاتِقَيْهِ رقم (٣٦٠) .

(٣) صحيح البخاري: كتاب الصلاة: بَابٌ: إِذَا صَلَّى فِي الثَّوْبِ الوَاحِدِ فَلْيَجْعَلْ عَلَى عَاتِقَيْهِ رقم (٣٥٨) .

فَأَخْبَرْتُهُ بِحَاجَتِي، فَلَمَّا فَرَغْتُ قَالَ: «مَا هَذَا الِاشْتِمَالُ الَّذِي رَأَيْتُ»، قُلْتُ: كَانَ ثَوْبٌ – يَعْنِي ضَاقَ – قَالَ: «فَإِنْ كَانَ وَاسِعًا فَالْتَحِفْ بِهِ، وَإِنْ كَانَ ضَيِّقًا فَاتَّزِرْ بِهِ»(١).

أما الرواية الثانية فقد بيَّن النبي – ﷺ – الكيفية التي يتحقق معها ستر العورة لمن صلى في ثوب واحد، وهي أن يلتحف بالثوب بين طرفيه، وذلك أدعى ألا ينشغل بالإمساك بثوبه فيضيع معه الخشوع في الصلاة وعلى ذلك تكون روايات الحديث الواقع فيها هذا الأسلوب النبوي الكريم متكاملة متوافقة في التأكيد على ستر العورة، وتقرير صورة ذلك في نفوس المخاطبين بهذا الحكم الشرعي.

وأما الرواية الثالثة فإن التأكيد فيها جاء بطريق آخر معضد للتأكيد العددي، بالاستفهام الواقع في قوله – ﷺ – "«**أَوَ لِكُلِّكُمْ ثَوْبَانِ**»، "والاستفهام هنا يحمل معنى التعجب والدهشة من طريقة تفكير الرجل، فما المانع من الصلاة في الثوب الواحد، وهل كل يجد ثونين ؟!، ونلمح هنا مسحة من التهكم للتوجيه إلى السؤال العميق عن المفيد "(٢).

والزكاة شقيقة الصلاة في الأقوال والأفعال، فهي ملازمة لها في الكتاب والسنة، وتابعة لها في أركان الإسلام الخمسة، ومن ثم جاء الترغيب فيها، والحث على الإنفاق في سبيل الله في مواضع شتى في البيان النبوي الشريف، وكان لأسلوب العدد غير المقيد له مظان حسنة بديعة في التعبير عنه ومن ذلك ما ورد عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ(٣)، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ،

(١) صحيح البخاري: كتاب الصلاة: بَابٌ: إِذَا صَلَّى فِي الثَّوْبِ الوَاحِدِ فَلْيَجْعَلْ عَلَى عَاتِقَيْهِ رقم (٣٦١).

(٢) السمات البلاغية في بيان النبوة – د/ صبَّاح عبيد دراز صـ٢٢٠ ط/ مكتبة وهبة – ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م.

(٣) عقبة بن عمرو من بني خدارة بن الخزرج. شهد ليلة العقبة وهو صغير ولم يشهد بدرا فمات بها فِي آخِرِ خِلافَةِ مُعَاوِيَةَ. [الطبقات الكبرى: ٦/ ٩٤].

فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ –: «**لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُ مِائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ**»(١).

والخِطامُ كلُّ مَا وُضِع فِي أَنف الْبَعِيرِ ليُقاد بِهِ، وَالْجَمْعُ خُطُمٌ. (٢). وَإِنَّمَا سمي خطاما لِأَنَّهُ يَقع على الخطم، وهو الْأنف(٣). وإنما كانت مخطومة لأن خطامها يمكن صاحبها من أن يعمل بها ما أراد(٤).

والمعنى كما ذكر النووي: " يحتمل أن يكون المراد له أجر سبعمائة ناقة في غير سبيل الله، وأن يكون علي ظاهره، ويكون له في الجنة بها سبعمائة ناقة، كما جاء في خيل الجنة"(٥).

وقال غيره: "وقد يكون ذلك إشارة إلى تضعيف ثوابه، وتسمية الثواب باسم الحسنة والطاعة"(٦).

وعبارة " إشارة إلى تضعيف الثواب " توحي بأن العدد في هذا السياق غير مقصود في ذاته، ولا مفهوم له مطابق لمنطوقه، وإنما أراد النبي – ﷺ – أن يثبت الفضل، ويبشر بالثواب الجزيل من رب العالمين تحببا وترغيبا في الإنفاق في سبيل الله.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإمارة – بَابُ فَضْلِ الصَّدَقَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَتَضْعِيفِهَا رقم (١٣٢).

(٢) ينظر: لسان العرب أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور مادة (خطم)– طبعة: دار صادر – بيروت الثالثة – ١٤١٤هـ.

(٣) كشف المشكل من حديث الصحيحين– جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي: ٢ /٢٠٦ المحقق: علي حسين البواب ط: دار الوطن – الرياض.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين– محمد علي بن محمد بن علان: ١٣٠/٧– اعتنى بها: خليل مأمون شيحا– الناشر: دار المعرفة بيروت – لبنان– الرابعة، ١٤٢٥هـ– ٢٠٠٤م.

(٥) شرح النووي على مسلم –: ١٣ / ٣٨.

(٦) إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم– عياض بن موسى السبتي:٦ / ٣١٥– المحقق: الدكتور يحْيَى إِسْمَاعِيل– ط: دار الوفاء، مصر: الأولى، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

إلا أن الإمام النووي قد استظهر الرأي القائل بأن الله تعالى جعل له في الجنة بها سبعمائة ناقة، على ظاهره، بقوله: "ويحتمل أن يكون على ظاهره ويكون له في الجنة بها سبعمائة كل واحدة منهن مخطومة يركبهن حيث شاء للتنزه كما جاء في خيل الجنة ونجبها وهذا الاحتمال أظهر"(١). وذهب إلى ذلك استنادا إلى وصف سبع مائة ناقة بأنها مخطومة، والخطم وصف ظاهر للخيل، وعليه ذهب شراح الحديث .

إلا أن ذلك لا يمنع من قبول الاحتمالات الأخرى، ويمكن حمل الوصف إنه ظاهر في كونها ناقة عليها خطامها بأنه كناية عن تملك زمامها، وتحريكها كيفما أراد، وهذا من تمام النعيم، وكمال الفضل في الجنة، ويبقى المراد من العدد مفهومه المخالف لمنطوقه، وهو عدم التقيد بعدد معين بل مضاعفة الثواب من الله واسع الفضل، كثير النعم، قال القرطبيّ: "هذه الحسنة مما ضُوعف إلى سبعمائة ضعف، وهو أقصى الأعداد المحصورة التي تضاعَف الحسنات إليها، وهذا كما قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ ﴾(٢) وبقي بعد هذا المضاعفة من غير حصر، ولا حدّ، وهي مفهومة من قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ ﴾(٣) الآية(٤)، وعبارة القرطبي: القرطبي: "وبقي بعد هذا المضاعفة من غير حصر، ولا حدّ" تعضد ما ذهبت إليه من قول بأن العدد غير مقيد لمعدوده، وغير حاصر جنس المعدود "الناقة" فيه، وعند الرجوع إلى تصنيف هذا الحديث عند الإمام مسلم نرى أنه جاء في سياق الحديث عن فضل الصدقة والترغيب فيها تحت عنوان "بَابُ فَضْلِ

(١) شرح النووي على مسلم –: ١٣ / ٣٨.
(٢) سورة: البقرة: بعض آية: ٢٦١.
(٣) سورة: البقرة: بعض آية: ٢٦١.
(٤) شرح سنن النسائي المسمى «ذخيرة العقبى في شرح المجتبى». لمحمد بن علي الوَلَّوِي: ٢٦ / ٣٢٠ ط – دار آل بروم للنشر الأولى: ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م.

الصَّدَقَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَتَضْعِيفِهَا"، وهذا التصنيف يقوي ما ذهبت إليه، وإن كانت الاحتمالات الأخرى مقبولة، ففضل الله واسع وعطاؤه لا يحد .

ومن ذلك في أحاديث الصيام وكان العدد فيه لقصد المبالغة في الترغيب ما روي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - يَقُولُ: «**مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، بَعَّدَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا**»(١) وفي رواية مسلم: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلَّا بَاعَدَ اللهُ، بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا**»(٢).

وهاتان الروايتان مع اختلاف التعبير اللفظي، والأسلوب التركيبي بينها إلا أن المعنى السياقي، والمفهوم الدلالي واحد وهو المبالغة في الترغيب في الصيام، والتأكيد في إظهار فضل الصيام في سبيل الله . فالتعبير بالفعل **(بَعَّدَ)** بتشديد عين الفعل في رواية البخاري، والتعبير بصيغة المفاعلة **(باعد)** من أبعده للمبالغة في اثبات الحكم، والحث على الإتيان بالفعل وإن كان فيه مشقة، لما ينتظر من ثواب عظيم.

والمعنى: قال السيوطي "من يَصُوم يَوْمًا فِي سَبِيل الله أَي فِي طَاعَته يَعْنِي قَاصِدا بِهِ وَجه الله تَعَالَى وَقيل إِنَّه الْجِهَاد فِي سَبِيل الله سبعين خَرِيفًا أَي مسيرَة سبعين سنة وَالْمرَاد الْمُبَالغَة فِي الْبعد وَكَثِيرًا مَا يَجِيء السبعون عبارَة عَن التكثير "(٣).

(١) صحيح البخاري: كتاب الصيام: بَابُ فَضْلِ الصَّوْمِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ رقم (٢٨٤٠).
(٢) صحيح مسلم كِتَابُ الصيام- بَابُ فَضْلِ الصِّيَامِ فِي سَبِيلِ اللهِ لِمَنْ يُطِيقُهُ، بِلَا ضَرَرٍ وَلَا تَفْوِيتِ حَقٍّ رقم (١٦٧).
(٣) الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج جلال الدين السيوطي: ٣ / ٢٣٤ - تحقيق: أبو اسحق الحويني -: دار ابن عفان للنشر - المملكة العربية السعودية - الخبر -: الأولى ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

قال السندي: "(سبعين خريفا) أي مسافة سبعين عاما يعني أنها مسافة لا تقطع إلا بسير سبعين عاما وهو كناية عن حصول البعد العظيم"(١).

وذكر الصنعاني أن " فيه دلالة على فضيلة الصوم في الجهاد ما لم يضعف بسببه عن قتال عدوه وكان فضيلة، ذلك لأنه جمع بين جهاد عدوه وجهاد نفسه في طعامه وشرابه وشهوته، وكنى بقوله: «باعد الله بينه وبين النار سبعين خريفا» عن سلامته من عذابها. (٢)، وقال المباركفوري: قال القرطبي ورد ذكر السبعين لإرادة التكثير كثيرا (٣).

وعبارات الشرَّاح دلالة قاطعة على أن العدد "سبعين" وتمييزه "خريفا" ليس مقصودا بمنطوقه، وإنما بما يفهم من سياق الكلام، وهو المبالغة عن البعد العظيم، والمعافاة من عذابها، والسلامة من لهيبها ..

وجاء التمييز بالخريف وهو يعبر به عن السنة، فمعنى "سبعين خريفا" وهو من المجاز المرسل لعلاقة الجزئية، وكانت العرب تؤرخ أعوامها بالخريف لأنه كان أوان جدادهم وقطافهم وإدراك غلاتهم(٤)، كما أن تخصيص الخريف بالذكر دون بقية الفصول الصيف والشتاء والربيع لأن الخريف أزكى الفصول لكونه يجنى فيه الثمار "(٥).

---

(١) كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه المسماة "حاشية السندي على سنن ابن ماجه لمحمد بن عبد الهادي التتوي، نور الدين السندي: ١ /٥٢٥- الناشر: دار الجيل – بيروت، بدون طبعة.

(٢) سبل السلام: محمد بن إسماعيل الصنعاني: ١/ ٥٨٣- ط: دار الحديث.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لأبي العلا محمد عبد الرحمن المباركفورى: ٥/ ٢٠٨ الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

(٤) حاشية السيوطي على سنن النسائي – جلال الدين السيوطي: ٤ / ١٧٢ – الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب– الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ – ١٩٨٦.

(٥) تحفة الأحوذي: ٥ / ٢٠٧ الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

أما العبادات القولية وهي المشتملة على الذكر والدعاء فقد وقع فيها هذا الأسلوب البلاغي في سياق الحديث عن أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وجاء العدد قصدا لدفع توهم، أو خوف تصحيف وتحريف، زيادة على ما فيه من تأكيد وتقرير وذلك فيما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(١).

الإيمان بأسماء الله الحسنى، وصفاته العليا ركن أصيل من أركان العقيدة الإسلامية، وأساس متين من أسس الإيمان بالله تعالى ذاتًا وصفاتًا، فهو يحتل منزلة عالية، وأهمية عظيمة في الدين الإسلامي، ولا يمكن لأحد ان يعبد الله على الوجه الأكمل، حتى يكون عالما بأسماء الله تعالى وصفاته؛ ليعبده على بصيرة "(٢)، ولذلك حرص النبي– ﷺ – على توضيح ذلك على سبيل الحفظ والتعلم، بطريق يحمل التأكيد والتمكن في النفوس، وناسب مجيء ذلك المعنى في أسلوب من أساليب التأكيد والتقرير، وهو التكرار المعنوي للعدد، فالعدد (مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا) لم يكن المعول من ذكره فهم أن المقصود هذا العدد، وبيان قيد أفراد جنسه في معدوده لا يتعداه إلى غيره، فهو ليس بجديد، ومعلوم من حاصل ما ذكر في قوله «تِسْعَةً وَتِسْعِين»؛ وإنما جاء ذكره لأغراض بلاغية متعددة رمى إليها في كلام رب العالمين، وهو تقوية الأسلوب، وتأكيد الكلام، وتوفير العناية بالمعنى، وذلك بذكر العدد على جهة الإجمال بعد ذكره مفصلا، قصدا للتأكيد والتقرير لنفس المعنى في ذهن المكلفين بالحكم الشرعي المعنيين بالخطاب من رب العباد، لاسيما أن العرب

(١) صحيح البخاري: كتاب التوحيد: بَابٌ: إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ اسْمٍ إِلَّا وَاحِدًا رقم (٧٣٩٢) وصحيح مسلم كِتَابُ العلم بَابٌ فِي أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَفَضْلِ مَنْ أَحْصَاهَا رقم (٦).

(٢) ينظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى – محمد صالح العثمنين – صـ ٥ ط: مؤسسة الرسالة – الرابعة – ١٤١٣هـ، ومنهاج المسلم – أبوبكر الجزائري صـ ١٠٨ ط مكتبة الدعوة القاهرة – الثامنة.

ليسوا أهل الحساب، وكانت تشتد الحاجة لديهم في مثل هذه المعاني التكليفية الشرعية إلى مزيد فهم، وفضل شرح، خاصة مع الأمور التي يحتاج معها إلى الاهتمام بالمعنى، والتركيز عليه لكونه حاملا بيان نوع من أهم العبادات القولية التي يتقرب بها العبد إلى خالقه . سبحانه . حتى تأتي تلك العبادة تامة كاملة، وصالحة للقبول امتثالا للبشرى الواردة في ختام الحديث الشريف.

والحق أن التعبير بهذا الأسلوب جاء متناغما مع سياق الحديث من بدايته إلى نهايته، القائم على التأكيد والتقرير لما تحمله ألفاظ الحديث من معان شريفة، وأغراض عقدية عالية، وعبادات ذات ثواب لا يحد، ووعد لا يخلف وهو «مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ».

ففي قوله: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا» وهي جملة خبرية اشتملت على تأكيدات متعددة مبالغة في إثبات الخبر، وتقويته في نفوس المعنيين بالأمر التشريعي، فقد صدر هذا الخبر بحرف التوكيد "إنَّ" مشددة النون الموضوعة لتأكيد الهبر وتقويته، وتقديم الجار والمجرور «لله» على اسم إن « تِسْعَةً وَتِسْعِين» لقصد الاختصاص، فتلك الأسماء محصورة على الله تعالى دون غيره، وقوله «مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا»، وهو بدل من قوله: « تِسْعَةً وَتِسْعِين» وهي جملة لا تحمل معنا جديدا، وإنما جاءت احتراسا عن الزيادة والنقصان، "وكان الاحتمال في رسم الخط واقعا باشتباه تسعة وتسعين في زلة الكاتب وهفوة القلم بسبعة وتسعين أو تسعة وسبعين فينشأ الاختلاف في المسموع من المسطور أكده حسما للمادة وإرشادا للاحتياط"[1]، ومثل هذا جعل الإمام البخاري يعدل في الترجمة من البدل إلى المبدل منه وجاء عنوانه "بَابٌ: إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ اسْمٍ إِلَّا وَاحِدًا" تجنبا للتصحيف والتحريف وهذا جائز فصيح.

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير – زين الدين محمد بن علي المناوي القاهري: ٢ /٤٧٨ – الناشر: المكتبة التجارية الكبرى – مصر – الأولى، ١٣٥٦.

ثم يزداد التأكيد والتقرير بزيادة التشوق والترقب، ويبلغ الاهتمام ذروته عند سماع قوله- ﷺ -« مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ» وما تحمله من بشرى محببة للنفوس، فتقع في قلب خاشع ساكن تام، وفكر يقظ متقد، مهيئًا نفسه لتقبل الخبر، والسعي جاهدا لإحصائها، والعمل بمقتضاها، والقيام بحقها عقديا وعمليا، لاسيما وأنها ستكون سببا في دخول الجنة، وعلى هذا فإن إعادة العدد مبدلا من سابقه جاء موافقا لسياق اللفظ، قائما بوظيفته المعنوية في أحسن صورة من اللفظ.

قال ابن حجر: "ويستفاد منه زيادة توضيح ؛ ولأن ذكر العقد أعلى من ذكر الكسور وأول العقود العشرات وثانيها المائة فلما قاربت العدة أعطيت حكمها وجبر الكسر بقوله مائة ثم أريد التحقق في العدد فاستثنى ولو لم يستثن لكان استعمالا غريبا سائغا"(١).

والتوكيد بهذه الصورة طريق مشهور في كلام العرب وكثير الوقوع في أساليبهم، وَإِنَّمَا تَفْعَلُ ذَلِكَ الْعَرَبُ لِقِلَّةِ مَعْرِفَتِهِمْ بِالْحِسَابِ، وَوَرَدَ ذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَشْعَارِهِمْ، ومنه قول الشاعر:(٢)

ثَلَاثٌ وَاثْنَتَانِ وَهُنَّ خَمْسٌ * وَسَادِسَةٌ تَمِيلُ إِلَى شَمَامِ**

وقول الشاعر:(٣)

تَوَهَّمْتُ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَا * لست أَعْوَامٍ وَذَا الْعَامُ سَابِعُ**

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري- لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي: ١٣ / ٣٧٧ – الناشر: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩ .

(٢) البيت منسوب للفرزدق وهو من شواهد: الأغاني لأبي فرج الأصفهاني: ٣٧٥/٢١ تحقيق: سمير جابر ط / دار الفكر بيروت لبنان، الثانية، وذكره ان قتيبة في ترجمته للفرزدق في الشعر والشعراء: ٤٧٣/١، وعيون الأخبار لابن قتيبة: ٣٣/٢، ١٠٥/٤ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٨هـ.

(٣) البيت للنابغة الذبياني وهو من شواهد: "البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ": ١٤٢ تحقيق أحمد أحمد بدوي وغيره ط / الجماهيرية العربية المتحدة، ومعاهد التنصيص: ١/ ٣٣٠.

وقول الشاعر:[١]

ثَلَاثُ بِالْغَدَاةِ فَهِيَ حَسْبِي * وَسِتٌّ حِينَ يُدْرِكُنِي الْعِشَاءُ**
فَذَلِكَ تِسْعَةٌ فِي الْيَوْمِ رِيِّي * وَشُرْبُ الْمَرْءِ فَوْقَ الرِّيِّ دَاءُ**

فهو أسلوب جاء على لغة العرب وطريقة أساليبهم في التعبير عن الأشياء، فهم يكررون طلبا للتأكيد والتقرير في نفوس المخاطبين.

ومن ذلك وكان العدد فيه على غير مفهوم منطوقه ما روي عن أَبِي هُرَيْرَةَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – يَقُولُ: **«وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»**[٢] وفي مسلم « **إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»**[٣] وعنده – أيضا – **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ، فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ، مَرَّةٍ»**[٤]

هذا من باب حث الأمة على التوبة والاستغفار، فإنه – ﷺ – مع كونه معصوما، وكونه خير المخلوقات إذا استغفر وتاب إلى ربه في كل يوم أكثر من سبعين مرة فكيف بالمذنبين، والاستغفار طلب المغفرة بالمقال والفعال جميعا، والمغفرة من الله أن يصون العبد من أن يمسه عذاب.[٥] والراجع إلى تسمية الباب عند الإمام مسلم يجد أنه نظر إلى سياق الحديث، وما يفهم من لفظه، فقد سماه " بَابَ اسْتِحْبَابِ الِاسْتِغْفَارِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهُ " وتلك الترجمة

(١) البيتان منسوبان للأعشى في تفسير القرطبي: ٤٠٣/٢، والبحر المحيط: ٢٦٨/٢، وفتح القدير: ٢٢٧/١، والتحرير والتنوير: ٢٢٨/٢.

(٢) صحيح البخاري: كِتَابُ الِاسْتِئْذَانِ: بَابُ اسْتِغْفَارِ النَّبِيِّ – ﷺ – فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ رقم (٦٣٠٧).

(٣) صحيح مسلم– كتاب الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ–بَابُ اسْتِحْبَابِ الِاسْتِغْفَارِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهُ رقم (٤١) عن الأغر المزني.

(٤) صحيح مسلم– كتاب الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ–بَابُ اسْتِحْبَابِ الِاسْتِغْفَارِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهُ رقم (٤٢) عن عبد الله بن عمر.

(٥) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري: ٤ /١٦١٠ – ط: دار الفكر، بيروت – لبنان– الأولى، ١٤٢٢هـ– ٢٠٠٢م.

موافقة لمعنى الحديث مع اختلاف رواياته، وذلك لأن العدد المذكور في الحديث لم يأت قصدا لحصر أفراد معدوده فيه، وإنما جاء لغرض طلب الإكثار في الاستغفار دون الوقوف على عدد محدد، فالعدد "سبعين" في رواية البخاري، والعدد "مائة" في روايتي مسلم عدد مبهم غير مراد من منطوقه، الغرض منه المبالغة في الاستغفار، والترغيب من الإكثار منه، وهذا ما ذهب إليه شراح الحديث، فقد ذكر ابن حجر العسقلاني، وتبعه بدر الدين العيني أن قوله – ﷺ –: "إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة"، يحتمل فيه المبالغة ويحتمل أن يريد العدد بعينه(١)، وذهب المناوي إلى أن المراد بالسبعين التكثير لا التحديد(٢).

فعبارات شارحي الحديث، مع اختلاف ألفاظها تدل دلالة ظاهرة على أن المراد من العدد على غير حقيقته، فهو لم يحد بعدد مخصوص، بل هو كناية عن الكثرة والمبالغة في طلب الاستغفار فالعرب تصنع السبع والسبعين والسبعمائة موضع الكثرة ولا تريد مفهوم العدد وظاهره وإنما لقصد المبالغة في الوصف، أو الكثرة في العدد، أو بلوغ النهاية في الأمر، ويعضد ذلك المعنى التعبير بلفظ (أكثر) في رواية البخاري بقوله: "أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً" وهو لفظ منهم إما أنه فسّر بروايتي مسلم «وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ» و«فَإِنِّي أَتُوبُ، فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ»، ويكون العدد على حقيقته، وإما أن تكون الأكثرية من باب الأفضلية المطلقة غير المتناهية، وهذا يتوافق وحال النبي – ﷺ – المعلوم عنه الاجتهاد في العبادة، والحرص على الترقي في حاله مع الله، والتوفيق بين العددين المذكورين في روايات الحديث يمكن إرجاعه إلى تلك الحالة النبوية مع الله تعالى، فتكون من باب الترقي في الطاعة، دون الوقوف على منطوق الأعداد، فإنه – ﷺ – "لما كان دائم

(١) ينظر: فتح الباري: ١١ / ١٠١، عمدة القاري: ٢٢/ ٢٧٩.
(٢) ينظر: فيض القدير: ٦ / ٣٥٩.

الترقي في معارج القرب كان كلما ارتقى درجة ورأى ما قبلها دونها استغفر منها "[١].

وبعد ... فالناظر في تلك الأحاديث النبوية الشريفة السابقة، يجد أنها قد اشتملت على أحكام تشريعية متنوعة، وأحكام تكليفية متعددة، ومثل هذه التشريعات نجد موضوعاتها علمية بحتة، ومثل هذه الأمور العلمية لا ضرر فيها إن خلت من الأساليب الإبداعية، لأن الغرض منها التركيز على الحكم ودقته، " وليس ما سوى الأقاويل الشعرية في حسن الموقع من النفوس مماثلا للأقاويل الشعرية، لأن الأقاويل التي ليست بشعرية ولا خطابية ينحى بها نحو الشعرية لا يحتاج فيها إلى ما يحتاج إليه في الأقاويل الشعرية، إذ المقصود بما سواها من الأقاويل إثبات شيء أو إبطاله أو التعريف بماهيته وحقيقته"[٢]، أما كلام النبي – ﷺ – في هذا الشأن فإنه مع ما احتواه من أحكام وتشريعات إلا أنه قد جمع بين الأسلوب العلمي الدقيق، والأسلوب الأدبي الرفيع، وهذا الأسلوب الذي يجمع بين خصائص الأسلوب العلمي، وخصائص الأسلوب الأدبي، فيضيف إليه توضيح العبارة، وتأييد الفكرة، وجمال اللفظ، وقوة التأثير"[٣]، ولن يكون ذلك إلا لمن خصه الله بجوامع الكلم، ومنحه محاسن البيان، وأرشده إلى فصول العلم، ومنابع الحكمة، وألهمه خصائص البلاغة، وفنون الكلام، ومثل هذا متحقق في تلك الأحاديث النبوية التي ذكرت كشاهد على معالم الإعجاز في جوامع الكلم وبدائع الحكم في البيان النبوي في العدد

(١) ينظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري – أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني أبو العباس، شهاب الدين: ٩ / ١٧٦ – ط: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر: السابعة، ١٣٢٣ هـ.

(٢) ينظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء – حازم القرطاجني صـ ١١٨، تحقيق: محمد بن الجيب الخوجة – طبعة دار الكتب الشرقية.

(٣) ينظر: فن البلاغة – عبد القادر حسين –صـ ٤٩، مطبعة الأمانة –بدون تاريخ.

غير المقيد لمعدوده في الصحيحين في باب العبادات وذكر الأحكام التشريعية المختلفة.

ففي الأحاديث التي تحمل أحكاما عقدية أو تشريعية "خصائص تركيبية، وضروب تصويرية، وفنون تحبيرية يُثْمِرُ تأملها وتذوقها وتدبرها فيضا من التثقيف النفسي، الذي يتسامى بصاحبه على مدرجة القرب الأقدس من رضوان رب العالمين، فنذيرٌ من عبادةِ فقيهٍ بلاغيٍ مخلصٍ أعظمُ وأجلُّ وأكرم عطاءً من كثير عبادةِ فقيهٍ غيرِ بلاغيٍ، أو بلاغيٍ غير فقيه: الفقيه البلاغي إنما يقبل على الطاعة إقبال محبة وأنس، فيرى في التكليف تشريفا، وتلك مثوبة تعجز الكلم عن وصفها، والأعداد عن إحصائها"[1].

❁❁❁❁

(١) دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين – " دراسة منهجية تحليلية " لشيخنا دكتور/ محمود توفيق محمد سعد صـ ٢١ – طبعة: مكتبة وهبة – الطبعة: الثانية ١٤٣٨هـ،٢٠١٧ م.

المبحث الثاني

العدد غير المقيد في أحاديث المعاملات ومكارم الأخلاق

العلاقة بين المعاملات والأخلاق علاقة الحالّية أو علاقة المحلية، فلن تتضح الأخلاق إلى بالمعاملات، ولا تستقيم المعاملات إلا بمكارم الأخلاق، ولقد كان النبي – ﷺ – مع أصحابه قدوة حسنة، قولًا وفعلًا، ومثلًا أعلى لما يأمر به أو ينهى عنه "، فكلامه – ﷺ – يجرى مجرى عمله، كله دين وتقوى وتعليم، وكله روحانية وقوة وحياة"[(١)]. فقد كان الصحابة الكرام – رضوان الله عليهم أجمعين – يتعلمون الأخلاق الكريمة من سيرة النبي – ﷺ – العطرة قبل أن تقع في آذانهم على صورة حكم وعظات، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[(٢)] والنبي – ﷺ – في علاجه للنفوس البشرية نظر في صلاحها لحالتين: الأولى: الفطرة الطيبة الداعية إلى الخير، والثانية: النفس الخبيثة التي تركن إلى الشر، وتنزلق إلى منحدر خبيث، وكان خطاب النبي – ﷺ لكلا الصنفين حسب مقتضى حاله ومآله واتخذ من أسلوب العدد غير المقيد لأفراد معدودة وسيلة لفظية، ذات دلالات تركيبية خاصة لعرض معانيه تأكيدا وتقريرًا، أو مبالغة في الترغيب أو الترهيب، ومن ذلك ما ورد في سياق الحث على التعاون وطلب الإتحاد بين المسلمين، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ،[(٣)] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ –: «**الْمُؤْمِنُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ إِنِ اشْتَكَى رَأْسُهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ**»، وفي رواية أخرى «**الْمُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ، إِنِ اشْتَكَى**

(١) من وحي القلم –: ٣ / ١١.
(٢) سورة الأحزاب: آية: ٢١.
(٣) النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ من بني الحارث، ويكنى أبا عبد الله وكان أول مولود من الأنصار ولد بالمدينة بعد هِجْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ –على رأس أربعة عشر شهرا مِنْ هِجْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – [الطبقات الكبرى: ٣٦/٨] .

عَيْنُهُ، اشْتَكَى كُلُّهُ، وَإِنِ اشْتَكَى، رَأْسُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ»"[١]، وعند مسلم من غير العدد فيها " **«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى »**[٢]

يمثل رسول الله – ﷺ – المؤمنين في تلك الخلال بالجسد الواحد، فكما أن الجسد إذا مرض منه عضو تألم له الباقي، فلم يذق نوما وسارت إليه حرارة الحمّى، فآلمته، فكذلك المؤمنون حقيقة إذا ناب واحدا منهم نائبة شعر بألمها الباقون، فسعوا بما فيهم من العواطف لدفع الألم عنه، وجلب الخير إليه، فالمسلمون في مجموعهم كشخص واحد وكل فرد منهم بالنسبة للمجموع كالعضو بالنسبة للشخص، فالخير يصيب الواحد منهم كأنما أصاب كلهم؛ والشر ينوبه كأنما ناب جميعهم"[٣].

والمعنى: الحث على وحدة الأمة الإسلامية واعتصامها بالكتاب والسنة؛ حتى تتحطم أمامها الأعاصير الجارفة، وتتزلق أمامهم كل دعاوى التفرقة والتمزق والانفصال، وتلك من المعاني المهمة التي ركز عليها الدين الإسلامي تنزيلاً وبياناً، فمن التنزيل قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[٤]. وتلك من المعاني ذات القيمة العالية في الدين الإسلامي، ومن ثم احتاج السياق إلى نوع من التأكيد والتقرير، بحثا عن الإثبات والإقناع، ومثل هذا موجود في

(١) صحيح مسلم كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ – بَابُ تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ رقم (٦٧).

(٢) صحيح مسلم كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ – بَابُ تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ رقم (٦٦).

(٣) الأدب النبوي – محمد عبد العزيز الخَوْلي: صـ ١٢١– طبعة: دار المعرفة – بيروت: الرابعة ١٤٢٣هـ.

(٤) سورة: آل عمران آية: ١٠٣.

روايات الحديث المتنوعة في البيان النبوي الشريف، ومجيء روايات الحديث على صورة التشبيه تقريبا للمعنى للإفهام، والغرض الحض على التآخي والتكاتف والتعاون، وتفضيل الاجتماع على الانفراد، ومدح الاتصال، ونبذ الانفصال"[١]، وقد جاء طرفي التشبيه جملة اسمية في روايات الباب: «**الْمُؤْمِنُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ**»، و«**الْمُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ**»؛ للدلالة على ثبوت الصفة واستمرارها، فهي متحققة ثابتة دائمة معهم طالما تحقق فيهم شرط الإيمان، أو اتصفوا بصفات الإسلام.

والتعبير بالجمل الشرطية في جملة التوضيح أو التفصيل لحال المشبه به في قوله: «**إِنِ اشْتَكَى رَأْسُهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ**».، وقوله «**إِنِ اشْتَكَى عَيْنُهُ، اشْتَكَى كُلُّهُ، وَإِنِ اشْتَكَى، رَأْسُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ**» لإفادة تحقق وقوع الشكوى من الجسد كله عند مرض أحد أعضائه، وتلك سمات الشيء الواحد الذي لا يتجزأ، والتعبير بالماضي في جانب فعل الشرط وجوابه «**إِنِ اشْتَكَى ... اشْتَكَى**»، مبالغة في تحقيق إثبات وقوع الفعل كأنه وقع وانتهى والتعبير بلفظ الإحاطة والشمول« **اشْتَكَى كُلُّهُ**» زيادة في التأكيد"؛ لإفادة تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض، وحثهم على ذلك من غير جرم أو خطيئة.

وتمتاز رواية «**الْمُؤْمِنُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ** »، ورواية «**الْمُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ**، » عن رواية «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**»[٢] وكلها عند مسلم، أن روايات الباب ذكر فيها العدد (واحد) بعد ذكر المعدود، وقد فهم منه معنى الوحدة والإفراد، ولم يأت قيدا لمعدوده، وإنما لغرض بلاغي رمى إليه وهو جعل المشبه به هو المخاطب نفسه، وتلك صورة قريبة منه، يعرف جميع

(١) ينظر: أثر التشبيه في تصوير المعنى – قراءة في صحيح مسلم – د / عبد الباري طه سعد صـ ٢٦٦ بدون: ط، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

(٢) صحيح مسلم كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ – بَابُ تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ رقم (٦٥).

أحوالها وأبعادها، فهو في تلك الصورة أمام نفسه، يرى ما يدور داخل جسده الواحد المتكامل، ويلمس الترابط بين أعضائه كلها، صغيرها وكبيرها، متمكنا من تلك الصورة؛ لأن عناصرها ليست غريبة عليه، يشغله بعض ما فيها من رؤية البعض الآخر، وإنما هو أمام صورة يعرفها بكل أبعادها، ولا يستغرب شيئا منها[١] كما أن التعبير بالعدد واحد بعد ما فهم من منطوق معدوده يتلاءم وسياق الحديث الشريف وهي التأكيد على الدعوة إلى مبدأ الوحدة وعدم التفرقة بين أفراد المجتمع الإسلامي، للحفاظ على تماسك أجزائه إتباعا لتعاليم ديننا الحنيف في أوامره ونواهيه، قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٢].

ومن الأحاديث الداعية إلى التآلف والتواد والتماسك بين أفراد المجتمع الإسلامي ما ورد عَنْ أَبِي مُوسَى،[٣] قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ – ﷺ –: «**إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ**»[٤].

والأشعريون جمع أشعري، بتشديد الياء نسبة إلى الإشعر، قبيلة من اليمن، ومنه الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري من رواة الحديث، وأرملوا: قلت

---

(١) ينظر: تأملات في البيان النبوي – د / إبراهيم عوضين صـ ٦٨ بتصرف – طبعة: مكتبة المتنبي – القاهرة.

(٢) سورة: الأنفال آية: ٤٦.

(٣) عَبْد اللَّه بْن قيس بْن سليم أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِي صاحب رَسُول اللَّه – ﷺ –أسلم، وهاجر إِلَى أرض الحبشة، ومات بالكوفة، سنة اثنتين وأربعين، وهو ابْنُ ثلاث وستين سنة [أسد الغابة: ٣ / ٣٦٤].

(٤) صحيح البخاري: كتاب الشركة بَابُ الشَّرِكَةِ فِي الطَّعَامِ وَالنِّهْدِ وَالعُرُوضِ رقم (٢٤٨٦)، وصحيح مسلم: كتاب الفضائل – بَابُ مِنْ فَضَائِلِ الْأَشْعَرِيِّينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ رقم (١٦٧).

أَزْوَادهم، وأصله من الرمل كأنهم لصقوا بالرمل من القلّة كما قيل ترب الرجل إذا افتقر كأنه لصق بالتراب، فمدحهم بالإيثار والمواساة، وهو أمر جعله الإسلام من خصائص أهل التقى والصلاح؛ لأن ذلك ما كان ليحدث إلا بعد صفاء نفس، وطهارة قلب من أمراض الحسد والبغضاء، وشح النفس وبخلها، فكانوا كالرجل الواحد في جميع أمورهم، وهذا الحديث الشريف صورة مثلى لباب المواساة بين أفراد المجتمع الواحد، ومن ثم كانت المكافأة على لسان النبي – ﷺ –بتخليد ذكرهم وتشريفهم بالنسب إلى شخصه الكريم – ﷺ –، فَقَالَ: " هم مني " يَعْنِي بأفعالهم وَإِن لم يَكُونُوا من أَقَاربه، قَالَ الشَّاعِر: (١).

وَقلت: أخي، قَالُوا: أخ ذُو قرَابَة! *. فَقلت لَهُم: إن الشكول أقارب**
نسيبي فِي رَأيي وعزمي ومذهبي * وَإِن خالفتنا فِي الْأُمُور الْمُنَاسب**

والحق أنه ليس شرطا أن تأتي صورة الكلام من التأكيد على مقتضى حال المخاطب فقط، وإنما تتحكم فيها نفسية المتكلم، ومدى تأثره بالمعنى، وانفعاله مع الموقف، واختيار الأساليب المترجمة لذلك، وتلك سمة البلاغة العربية، التي تعنى في المقام الأول بتصوير الشعور الداخلي لدى المتكلم، ومدى توظيف هذا الشعور، ونقله للمخاطب على قدر انفعال المتكلم به، فيتمكن في نفسه، ويستقر بداخله، في صورة مقبولة، ومعرض حسن، لاسيما في الأخبار العظيمة، والقصص المثيرة، والمواقف العجيبة، " ومن أجل أن تؤدي الصورة الاستهلالية دورها الفعال في شد المتلقين وتهيئتهم لتقبل التجربة الشعورية، بما تتضمنه من إثارة انفعالية تشويقية أو ترغيبية أو ترهيبية أو تعجيبية، يجب أن يراعي فيها ملاءمتها للغرض الذي من أجله صيغ النص"(٢).

---

(١) البيتان لأَبِي تَمَّامٍ يَرْثِي غَالِبًا السَّعْدِيَّ وهما من الطويل، ينظر ديوان أبي تمام صـ، طبعة [ينظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين: ١/ ٤١٢].

(٢) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية – مجيد عبد الحميد ناجي صـ ٩٥ –ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت، لبنان – الأولى: ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

والنبي – ﷺ – في هذا الحديث الشريف كانت الملاءمة مركوزة في أسلوبه البياني، فقد آثر التعبير بما يؤكد معناه بأكثر من تأكيد، مع تنوعه واختلاف وظائفه، إشارة إلى انفعاله بهذا الموقف المثير، والخبر العظيم التي تحمله تلك الجمل المؤَكدة مبنا ومعنى، فقد صدر الحديث الشريف بأسلوب مبني على القوة في الإثبات بمجيء الخبر في صورة الجملة الاسمية المؤَكدة بحرف التوكيد (إنَّ) المشددة، فكأن الجملة ذكرت مرتين تأكيدا وتقريرا، والمخاطبون غير شاكين أو منكرين للخبر؛ لأنه جاء إليهم ابتداء؛ وإنما كان التأكيد لبيان أهميته، وعظم قدره في نفس النبي – ﷺ –، وانفعاله الداخلي به، وتعجبه من فعالهم الدالة على فطرتهم الطيبة، ونفوسهم الكريمة، و"أو" في قوله: «**أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ**» للتنويع، وهو زيادة في المدح فحالهم حال السفر والحضر في هذا سواء، وقدم حالهم في الغزو على حالهم وهم في المدينة، أي محل إقامتهم؛ لأنهم حينئذ أشد احتياجا لما يملكون، فتكون النفس به أشد احتياجا، وأوثق حرصا، فقدّمه تأكيدا وتقريرا لمعنى المواساة والإيثار تحقيقا للمحبة والإخاء.

ثم يأتي دور العدد منطوقا ومفهوما مع تكراره على نسق بديع (جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ) وما أحدثه هذا العدد من تأكيد وتقرير للمعنى الممدوح بذكره بعد معدوده المعلوم فيه من لفظه معنى الإفراد (ثوب – إناء) أي واحد لا اثنان ولا ثلاثة، ولكن لما كان المقصد بيان فضل الاتحاد على قلب واحد، وأراد إثبات تلك الوحدة جاء باللفظ (واحد مكررا) تركيزا على المعنى المراد باللفظ والمعنى، فالمعدود دلَّ على الإفراد، والعدد دلّ على الوحدة المقصودة من هذا الإفراد ومنه في آي الذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾[1]، المعنى: يقرر الله تعالى في هذا المقام أهم أسس العقيدة، وهو إثبات الوحدانية

(١) سورة النحل: آية: ٥١ .

لـه – سبحانه – ونفيه عما عداه، فهو وحده لا شريك لـه، مالك كل شيء وخالقه، والآية: نهي صريح من الله تعالى للناس بعدم اتخاذ آلهة متعددة وأمرهم بحصر معبدوهم في إله واحد لا ند له ولا شريك، وهذا المعنى العقدي جاء في صورة أسلوب يحمل معاني التقرير والتوكيد، والبيان والتوضيح لأهميته فهو مفتاح العقيدة وأساسها، وصورة التوحيد وحقيقته.

فالعدد في قوله ﴿**لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ**﴾ وقوله: ﴿**إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ لا يؤسس معنى جديداً أو مفهوما زائداً على أصل مدلول المعدود، وإنما جيء به لغرض التأكيد والتقرير للمعنى في نفوس المخاطبين. فذكر العدد ﴿**اثْنَيْنِ**﴾ جاء توكيداً لصيغة التثنية المفهومة من لفظ المثنى ﴿الهين﴾ كما أن ذكر العدد ﴿**واحِدٌ**﴾ جاء توكيداً لصيغة الإفراد المفهوم من اللفظ الدال على الإفراد ﴿إله﴾ فهذا المعنى العقدي قد وصل على المخاطب في صورتين: أولهما: الدلالة الضمنية المفهومة من اللفظ المعدود الدال على التثنية والإفراد، ثانيهما: الدلالة النصية، وهو ما يفهم صراحة من منطوق اللفظ الدال على العدد: تثنية وإفرادًا، وهذا يجعل المعنى يصل إلى المخاطب في صورة واضحة جلية ويدخل في قلبه دخول المأنوس توضيحًا وتفسيرًا، ويرسخ في الذهن تأكيدا وتقريراً(١).

وفي تكرار العدد "واحد" في حق كل عمل مع تنوعه، وعدم الاكتفاء بذكره على سبيل الإجمال؛ في المعدود «**فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ،... فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ**» حتى لا يظن أن هذه الأعمال مجتمعة ينطبق عليها الحكم، وتأكيدا للمعاني في نفوس المخاطبين، وإظهارا لعظم هذا الثواب العظيم من رب العالمين، قال ابن الأثير: "واعلم أن المفيد من التكرير يأتي في الكلام تأكيدا له، وتشييدا من أمره، وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي كررت فيه كلامك، إما

(١) ينظر: العدد غير المقيد لمعدوده في القرآن الكريم – أحمد محمود الجبالي ص بحث منشور في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين القاهرة العدد رقم (٢٩) لسنة ٢٠١١.

مبالغة في مدحه أو في ذمه أو غير ذلك، [١] ثم زاد التوكيد لمعنى المواساة والإيثار بقوله: «**ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ**» وعلى هذا تكون كلمة (في) في قوله (في إناء) بمعنى الباء، وكأنه قام مقام المكيال فيما يكتال حتى لا يظلم أحد، وتكون القسمة كما وصفها النبي – ﷺ – بالسوية،[٢] وتأتي النتيجة المرجوة من هذا الخلق الكريم وهي بمثابة المكافأة الدنيوية الممزوجة بسعادة الآخرة وهي قوله – ﷺ – «فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ» منحة ربانية على لسان سيد البشرية محمد – ﷺ – تأكيدا وتقريرا، وترجمة لفظية لانفعاله – ﷺ – الشعوري، ومدحه لهذا الخلق القويم، فلم يرد أنه من الأشعريين نسبا، ولا أنهم من قريش؛ وإنما أراد أن خلقهم في المساواة أقرب الأخلاق إلى خلقه الكريم العظيم – ﷺ –، تأكيدًا للكلام، فما أعظم تلك الفضيلة؟!، قال النووي: "معناه المبالغة في اتحاد طريقتهما واتفاقهما في طاعة الله تعالى"[٣].

ومما هو من التأكيد والتقرير بأسلوب العدد غير المقيد لمعدوده ما روي عن أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ: « **نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِجَهَازِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِبَيْتِهَا فَأُحْرِقَ بِالنَّارِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: فَهَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً ؟!**» [٤].

---

(١) ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لابن الأثير: ٢/ ١٤٧، والتكرير بين المثير والتأثير د: عز الدين على السيد: ١٢١،١٢٢ ط عالم الكتب . الأولى، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

(٢) وظهرت هذه الصورة التضامنية في سفرهم إحدى الغزوات، فهم يتعاقبون على جمل واحد، يركب هذا قليلا ثم ينزل، ليركب الآخر مثله، حتى يركب آخرهم، فينزل ليركب أولهم، لم يكن الجمل لهزاله يتحمل اثنين، لهذا لم يردف أحدهما صاحبه، وهم الذين رقت قلوبهم، ولانت أحاسيسهم فرضي الله عنهم، وجزاهم عن الإسلام خير الجزاء. ينظر: فتح المنعم شرح صحيح مسلم: د/ موسى شاهين لاشين: ٧ / ٣٩٦، ٣٩٧ الناشر: دار الشروق الأولى، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م.

(٣) شرح النووي على مسلم: بَاب مِنْ فَضَائِلِ جُلَيْبِيبٍ ﷺ: ٦/ ٢٦.

(٤) صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق بَابٌ: خَمْسٌ مِنَ الدَّوَابِّ فَوَاسِقُ، يُقْتَلْنَ فِي الحَرَمِ رقم (٣٣١٩)، صحيح مسلم كتاب السلام – بَابُ النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ النَّمْلِ رقم (١٤٩،١٥٠).

العدل خلق كريم، يرفع صاحبه إلى درجة أهل الصلاح، به ترفع الأمم، وبضده يكون هلاك الممالك الجائرة، وفناء السلاطين المتكبرة، ولذلك حرص الإسلام أن يكون العدل أساس حياتهم ثوابا وعقابا، وهذا الحديث جاء في صورة قصة يرويها النبي – ﷺ – جاء العدد فيها رمزا لمعنى العدالة المطلقة، ممزوجة بالعفو والصفح الجميل، ولن يتأتى ذلك من غير هذا التعبير العددي الكاشف عن معاني الترهيب يعقبها الترغيب، وإنما وقعت تلك الكشوف النبوية بالتعبير بالعدد بعد المعدود المفهوم عدده من لفظه، فإن التاء في قوله "نملة"، وهي من الألفاظ التي لا مذكر لها في مفرده، ومن ثم فإنها دالة بأصل وضعها المعجمي على الوحدة، فإذا جاء العدد بعدها كان تأكيدا على تلك الوحدة لغرض بلاغي رمى إليه هذا الأسلوب وهو المبالغة في الترهيب والتغليظ من فعل هذا النبي، بأنه أخذ غير المذنب بما فعله المذنب، وكان عليه أن يقتص ممن وقع منها فعل اللدغ، حتى لا يتجاوز في العقاب، قال تعالى ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[1]، ولهذا جاء أسلوب التوبيخ والتنديم في قوله: « فَهَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً ؟»، عتابا وزجرا لفعله المتجاوز الحد فيه، و" فهلا " للتوبيخ والتنديم، وتختص بالدخول على الفعل الماضي، والفعل هنا مقدر، و"نملة" بالنصب مفعوله، والتقدير: هلا عاقبت نملة واحدة، فقد قرصتك نملة واحدة،، وذهب بعض شراح الحديث إلى ان "هلا " في الحديث الشريف "حرف تحضيض، والتحضيض الطلب بحث وإزعاج.[2]، غير أن معنى التحضيض – هنا – يأتي في مرتبة متأخرة بعد مفهوم التنديم والتوبيخ ؛ لكونهما مقصد الحديث، والغرض الأصيل في سياق الكلام، وصورته التأكيدية الواقعة فيه مبالغة في

(١) سورة البقرة آية: ١٩٤.

(٢) الكوكب الوهَّاج والرَّوض البَهَّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج–: محمد الأمين الأُرَمي: ٣٧١/٢٢– ط: دار المنهاج: الأولى، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

التوبيخ والتنديم، وتأكيداً على ما في الكلام من إنكار وترهيب، وإن كان في التحضيض معنى الطلب بحث وإزعاج، " فالتحذير من التعدي في الاقتصاص، وأنه لا ينبغي للإنسان، وإن شرفت منزلته أن يتجاوز في استيفاء القصاص حد المشروع، فإن هذا وهو نبي من الأنبياء لم يسامح في الحيف على نملة، وعوتب في ذلك".(١)

وقد ذكر ابن حجر العسقلاني أن هذا الحديث جاء ضربا للمثل وردا على موقف هذا النبي من إهلاك قرية كاملة بسبب ذنوب أهلها، وذهب إلى أن "لهذه القصة سببا وهو أن هذا النبي مر على قرية أهلكها الله تعالى بذنوب أهلها فوقف متعجبا فقال يا رب قد كان فيهم صبيان ودواب ومن لم يقترف ذنبا ثم نزل تحت شجرة فجرت له هذه القصة فنبهه الله جل وعلا على أن الجنس المؤذي يقتل وإن لم يؤذ وتقتل أولاده وإن لم تبلغ الأذى انتهى وهذا هو الظاهر وإن ثبتت هذه القصة تعين المصير إليه والحاصل أنه لم يعاتب إنكارا لما فعل بل جوابا له وإيضاحا لحكمة شمول الهلاك لجميع أهل تلك القرية فضرب له المثل بذلك أي إذا اختلط من يستحق الإهلاك بغيره وتعين إهلاك الجميع طريقا إلى إهلاك المستحق جاز إهلاك الجميع".(٢)

ومن الأخلاق التي دعا الإسلام أتباعه التحلي بها اليقظة وعدم الغفلة، وأن يكون المؤمن كيسا فطنا، لا يخدع من أحد، فليس المؤمن بالخبّ لا يخدعه الخب، ومن ذلك ما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ – ﷺ – أَنَّهُ قَالَ: «**لاَ يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ**»(٣).

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح– أبو المظفر، عون الدين يحيى بن هُبَيْرَة الذهلي الشيبانيّ: ٦ / ١٥٣ – ت: فؤاد عبد المنعم أحمد– ط: دار الوطن– ١٤١٧هـ.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٦ / ٣٥٨.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الأدب بَابٌ: لاَ يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ رقم (٦١٣٣)، صحيح مسلم كتاب الزهد والرقاق – بَابُ لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ رقم (٦٣).

الرواية المشهورة «**لاَ يُلْدَغُ**» برفع الغين ويروى على وجهين أحدهما بضم الغين على الخبر ومعناه المؤمن الممدوح وهو الكيس الحازم الذي لا يستغفل فيخدع مرة بعد أخرى ولا يفطن لذلك وقيل إن المراد الخداع في أمور الآخرة دون الدنيا والوجه الثاني بكسر الغين «**لاَ يُلْدَغِ**» على النهي أن يؤتى من جهة الغفلة قال وسبب الحديث معروف وهو أن النبي – ﷺ – أسر أبا عزة الشاعر يوم بدر فمن عليه وعاهده أن لا يحرض عليه ولا يهجوه وأطلقه فلحق بقومه ثم رجع إلى التحريض والهجاء ثم أسره يوم أحد فسأله المن فقال النبي – ﷺ – «لاَ يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ» [1] ويمكن الجمع بين رواية الرفع ورواية الجر بجعل الكلام من الخبر الذي أريد منه الإنشاء، أي: ليكن الْمُؤمن على حذر في حياته، لَا يُؤْتى أذاه من موضع أصيب فيه من ذي قبل، فلاَ حَكِيمَ إِلَّا ذُو تَجْرِبَةٍ.

وتقييد الجحر بالعدد "واحد" وهو واقع نعت لمنعوت فهم صفته من لفظه المنطوق الدال على الإفراد والوحدة في قوله: «**جُحْرٍ وَاحِدٍ**» للتأكيد والمبالغة في التنبيه على أنه يستوجب مزيدا من الانتباه واليقظة، لكونه معلوما معهودا أن المؤمن الحق لا يخدع مرة بعد مرة، كما أنه يجب عليه أن يتعلم مما مضى له ولغيره من مواقف وأحوال، فلا ينبغي للمؤمن إذا نكب من وجه أن يعود إليه، بل ينبغي أن يكون المؤمن كيسًا فطنًا حذرًا وفاقًا، مثبِّتًا عالمًا ورعًا، ولا يعجل، وإلا أتصف بما يتصف به المنافق، فهو همزة لمزة حطمة، لا يقف عند شبهة، ولا ينزع عن كل ذي محرم، كحاطب ليل لا يبالي من أين كسب وفي ما أنفق، كثير العطب، قليل الفهم، بعيد التجربة، لا يدري ما يفعل به، وما ينتظره قليل الحيلة، ضعيف القدرة على مواجهة الصعاب.

والتعبير بالفعل المضارع "يلدغ"؛ لما فيه من مبالغة واقعة فيما يصاب به من ألم شديد سريع، في مفاجأة خاطفة، تجعل من يصاب بذلك حريصا من العودة

(١) هامش صحيح مسلم – تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ٢/ ٢٢٩٥.

إلى ذلك شديد الحيطة والحذر من أن يفعل به كما فعل من ذي قبل، ولذا كان المسند إليه " المؤمن "معرفا" بـ "ال" وهي هنا للعهد أي: المؤمن الكامل الذي عرف أجزاء الأمور، وعلم كلياتها، فأخذ العبرة، فبعد عن كل ما ينقص قدره دنيا ودين.

والجحر في الحديث مجاز لغوي من قبيل المرسل لعلاقة المحلية، حيث أطلق المحل وهو المكان، وأراد ما يسكنه مما يؤذي، والتعبير بالمحل عن الحالِّ إشارة إلى أن المراد ليس أخذ الحيطة فحسب، بل عدم الاقتراب منه في ذاته، ومن حام حول الحمى وقع فيه.

وعلى هذا فالحديث مجاز لغوي من نوع المركب (الاستعارة التمثيلية)، "والمثل الناشئ عن تلك الاستعارة التمثيلية " كالبرهان القاطع، والحكمة البالغة التي فيها شبه اتفاق بين الناس"[1]، حيث صور النبي – ﷺ – حال الرجل الذي يخدع من موطن واحد أكثر من مرة بحال من يلدغ من جحر واحد مرة بعد مرة ولا يأخذ حذره منه، بل تراه كثير المعاودة إليه، والجامع: عدم الانتفاع مما يرجى منه ذلك تتعلما وتذكيرا مما سبق به من تجارب، وهذا يدل على شدة الغفلة واللامبالاة والتي يرفض الإسلام أن يتصف أحد إتباعه بها، ولا شك أن هذا التمثيل يترك في النفس زيادة تأكيد، وقوة تقرير، فقد أراد النبي – ﷺ – إرشاد المؤمن وتنبيهه إلى عدم العودة إلى موضع أصيب فيه بأذى، سواء كان في أمر الدنيا أو الدين "فالإيمان ليس وسيلة للغفلة والسذاجة والانخداع، ولكن طريق لمزيد من اليقظة والانتباه، ومهما بالغ الإنسان العادي في الحذر والحيطة، فإنه لا يملك أن يكون في مأمن من كل سوء، ولكن من شأنه أن يكون قادرا على الحد منه، وذلك على ضوء ما سبق له من عبرة وتجربة،

(١) من أسرار البيان – دكتور: عبد الحليم محمد شادي صـ ١٤٦ – الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

ومن صدمة من الصدمات، ولذا لا يعود لأسبابها مرة أخرى، ولا يحوم حول حفرتها، ولا قريبا منها، لئلا يلدغ مرة أخرى"[١].

والإسلام لا يدعو إلى الكثرة في العدد، دون أن يكون له قيمة، وأن ترى فيها نفع، بل يحتاج إلى رجال تحمل راية الدعوة، وتفكر في أمر الأمة، ومن ثم كان التنويه على ذلك في كثير من المواضع، وبين أن قد تكون الكثرة ولا يوجد فيها نفع للمؤمنين، ولا يرجى منه ضرر للمنافقين أو الكافرين وذلك لما روي عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ –: «**إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ المِائَةِ، لاَ تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً**»[٢].

هذا مثل لمن كثر جنسه، وقلَّ المرضي منه، والمعنى الناس كثير، ولكن تكاد تعدم فيهم النفع، فالمرضي منهم قليل، "فالمعنى لا تجد في مائة إبل راحلة تصلح للركوب لأن الذي يصلح للركوب ينبغي أن يكون وطيئا سهل الانقياد وكذا لا تجد في مائة من الناس من يصلح للصحبة بأن يعاون رفيقه ويلين جانبه" [٣]، وعلى ذلك فالعدد في سياق الحديث لا يدل منطوقه على أصل مفهومه، وإنما جيء به لغرض المبالغة في الكثرة في جنس الناس، فمرضى الْأَحْوَال من النَّاس الْكَامِل الْأَوْصَاف قَلِيل فيهم جدا كقلَّة الرَّاحِلَة فِي الْإِبِل، فصاحب الخلق الحسن، والأفضال الكريمة، والخصال الكاملة، والأوصاف التامة، حين البحث عنهم بين جنس الناس الكثير لا تكاد تقف على أحد منهم.

---

(١) أدب الحديث النبوي – بكري شيخ أمين: صـ ٢١٠،٢١١ ط دار الشروق – الخامسة – ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

(٢) صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب رفع الأمانة رقم (٦٤٩٨) وصحيح مسلم كتاب الزهد والرقاق بَابُ قَوْلِهِ ﷺ: النَّاسُ كَإِبِلٍ مِائَةٍ لَا تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً رقم (٢٣٢) ولفظه «تَجِدُونَ النَّاسَ كَإِبِلٍ مِائَةٍ، لَا يَجِدُ الرَّجُلُ فِيهَا رَاحِلَةً».

(٣) فتح الباري – ابن حجر: ١١ / ٣٣٥.

وقد اختلف شراح الحديث في توجيه معنى الحديث، ومع هذا الاختلاف السياقي اختلف معها معنى اللفظ النبوي ملاءمة للسياق، للوقوف إلى المراد، فمن العلماء من ذهب إلى أن معناه: أن الزاهد في الدنيا، الكامل في الزهد فيها، الراغب في الآخرة من الناس – مع كثرتهم – قليل جدا، يندر وجودهم في الحياة[١]، وعلى هذا فإن معنى « كاد » في رواية البخاري «**لاَ تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً**»، للدلالة على قلة وجود الشيء، وندرة وقوعه بين بني جنسه الكثير.

وذهب الخطابي إلى معنى أن الناس في أحكام الدين سواء لا فضل فيها لشريف على مشروف ولا لرفيع على وضيع، كالإبل المائة التي لا تكون فيها راحلة، وقيل: إن أكثر الناس أهل نقص وأهل الفضل عددهم قليل بمنزلة الراحلة في الإبل الحمولة. قال الله تعالى:﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾[٢]، وقوله:﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[٣]، وقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[٥]، وعلى هذا المعنى يكون قوله «لاَ تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً» جملة منفية، و(تكاد) مؤكدة لمعنى النفي الموجود في سياق الكلام، حيث إنها تنفي مقاربة الوجود، ونفي المقاربة نفي للشيء أصلا، والمعنى أنك لا تجد فيها راحلة، ولا تقارب أن تجد فيها المرضي عنها مع كثرتها.

وقال القرطبي: الذي يناسب التمثيل أن الرجل الجواد الذي يحمل أثقال الناس والحمالات عنهم ويكشف كربهم عزيز الوجود كالراحلة في الإبل الكثيرة[٦]،

(١) ينظر: عمدة القارئ: ٨٥/٢٣.
(٢) سورة: البقرة: جزء آية: ٢٤٣.
(٣) سورة: الأنعام: جزء آية: ٣٧.
(٤) سورة: الأنعام: جزء آية: ١١١.
(٥) سورة: هود: جزء آية: ١٧، وينظر: عمدة القارئ: ٨٥/٢٣.
(٦) فتح الباري – ابن حجر: ١١/ ٣٣٥.

وعلى هذا المعنى يكون قوله «لاَ تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً» للدلالة على ندرة وجوده، وندرة حدوثه، وهذا ليس كسابقه، وإنما المعنى أنه موجود ولكنك تجده بعد بحث وتفتيش، وتعب وجهد.

والحديث تمثيل للمختار المنتخب من الناس في عزة وجوده، مع كثرة أفراد جنسه كالنجيبة المنتخبة التي لا توجد في كثير من أفراد جنسها ، فوجه الشبه بين الطرفين هو هيئة حاصلة من عزة وجود الكامل، مع كثرة أفراد جنسه، وهذا المعنى خفي؛ "لأن انتقال الذهن من معنى الإبل إلى الناس إنما يكون باعتبار المعنى المشهور في الإبل، وهو كثرة الأكل، وقلة الفهم، مع كبر الأعضاء وطولها، أو هو الصبر والجلد على العمل، أما عزة وجود الكامل، مع كثرة أفراد جنسه فهو معنى بعيد عن الخاطر، وهذا التمثيل ملتقط من واقع البيئة العربية الخبيرة بالأسفار وانتجاب الإبل، ثم إنه حقيقة معترف بها، فهو دليل على وقوع المشبه بالقياس مع التصوير الحسي البارع، وإدخال المخاطبين في تكوين الصورة (تجدون) والإيجاز البليغ، ومع كونه تصويرا لحقيقة الخير والشر يدعو إلى الكمال والتحلي بعظيم الصفات وهذه القضية "ندرة المؤمن الكامل" تكون بموت الصالحين، تعجيلا بخيارهم تكريما وإسراعا بالجزاء، وتبقى بقية لا خير فيها، والتفاهة وقلة الفناء من الصفات المعنوية التي ظهرت في معرض التشبيه الحسي المفرد، ولكنه موح إذ المشبه به تقع الأنظار عليه دائما في البيئة العربية مبتذلها تافها لا يلقى اهتماما، فإذا تصافر الناس وانتزع الخير منهم فأي فضل لهم.[1] والحديث كناية عن ذم الدنيا وتحذير العباد منها، ومن سوء مغبتها، والتنافس عليها، إلا أن أكثر الناس انغمسوا فيها وتنافَسوا عليها حتى كان الزهدُ في النادرِ القليلِ منهم، فإنما يراد به القرون المذمومة في آخر الزمان، ولذلك ذكره الإمام البخاري في

(١) ينظر: السمات البلاغية في بيان النبوة – دكتور / صبَّاح عبيد دراز صـ٢٩٢. وهو إشارة إلى حديث «يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ، الأَوَّلُ فَالأَوَّلُ، وَيَبْقَى حُفَالَةٌ كَحُفَالَةِ الشَّعِيرِ، أَوِ التَّمْرِ» صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب بقاء الصالحين.

باب رفع الأمانة ولم يرد به – ﷺ – زمن أصحابه، وتابعيهم لأنه قد شهد لهم بالفضل [١].

وخلاصة القول في ذلك المعنى هو أن المرضي المنتخب من الناس الصالح للصحبة سهل الانقياد عسر وجوده، كالنجيبة الصالحة للركوب التي لا توجد في الإبل الكثيرة القوية على الأحمال والأسفار، فذكر المائة للتكثير لا للتحديد[٢]، وهو الأقرب للسياق ومفهوم الألفاظ، وهو كثير في كلام العرب وأشعارهم[٣].

والقناعة خلق كريم من أخلاق الإسلام دعا إليها، وحث أتباعه التمثل والاقتداء بها، وجعلها صفة بارزة دالة على كمال الإيمان، ونقيضها دلالة ظاهرة على صنف الكافرين المارقين، وقد ذكر البيان النبوي هذا المعنى وكان لأسلوب العدد غير المقيد والذي جاء لغرض المبالغة في الكثرة موقعا حسنا، وذلك في الحديث الذي روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَأْكُلُ أَكْلًا كَثِيرًا، فَأَسْلَمَ، فَكَانَ يَأْكُلُ أَكْلًا قَلِيلًا، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ – ﷺ – فَقَالَ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَأْكُلُ فِي**

---

(١) وذلك في قوله: «خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ يَلُونِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ» صحيح مسلم – كتاب فضائل الصحابة – باب فضل الصحابة الذين يلونهم.

(٢) ينظر: مرقاة المفاتيح: ٨ / ٣٣٦٠

(٣) يقول بعض ولذا أرباب الحال: هذا زمان قحط الرجال، ومنه قول الشاعر:

وإذا صفا لك من زمانك واحد ... فهو المراد وأين ذاك الواحد

وقول الآخر:

وزهَّدني في الناس معرفتي بهم ** وطُول اختباري صاحبًا بعد صاحب
فلم تُرني الأيامُ خِلًّا يسرُّني ** بواديه إلا ساءني في العواقب

وقال الشاعِرُ:

الناسُ مِثلُ بيوتِ الشِّعْرِ كَمْ رَجلٍ ... مِنْهُمْ بألْفٍ وكَمْ بيتٍ بديوان

وفي هذا المعنى يقول المعرّي:

النّاسُ كالشّعْرِ تُلْفى الأرْضُ جائِشةً ... بالجَمْعِ يُزْجى وخيرٌ منهمُ رَجلُ

مِعًى وَاحِدٍ، وَالكَافِرَ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ» [١] وعند مسلم، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – ضَافَهُ ضَيْفٌ وَهُوَ كَافِرٌ، فَأَمَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ – ﷺ – بِشَاةٍ فَحُلِبَتْ، فَشَرِبَ حِلَابَهَا، ثُمَّ أُخْرَى فَشَرِبَهُ، ثُمَّ أُخْرَى فَشَرِبَهُ، حَتَّى شَرِبَ حِلَابَ سَبْعِ شِيَاهٍ، ثُمَّ إِنَّهُ أَصْبَحَ فَأَسْلَمَ، فَأَمَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ – ﷺ – بِشَاةٍ، فَشَرِبَ حِلَابَهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِأُخْرَى، فَلَمْ يَسْتَتِمَّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ –: «**الْمُؤْمِنُ يَشْرَبُ فِي مِعًى وَاحِدٍ، وَالْكَافِرُ يَشْرَبُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ**» [٢].

هذا الحديث الشريف جاء لغرض الحض على التقليل من الدنيا والقناعة باليسير منها، والمعى: مَقْصُورَة وَجَمعهَا أمعاء ممدودة. قَالَ الْفراء: جَاءَ فِي الحَدِيث معي وَاحِدَة، وَوَاحِد أعجب إِلَيّ، وَأَكْثر كَلَام الْعَرَب تذكره[٣] قَالَ الْقطَامِي:[٤]

كأنَّ نُسُوعَ رَحْلي حين ضَمَّتْ * حوالب غُرَّزًا ومِعًى جياعا**[٥]

فقال: جياعا، وكان الوجه أن يقول: جائعاً؛ لأن المعى واحد.[٦]

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأطعمة – بَابُ الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ رقم (٥٣٩٧).

(٢) صحيح مسلم – كتاب الأشربة – باب . بَابُ الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ رقم (١٨٦).

(٣) ينظر: لسان العرب: مادة (معي)

(٤) القطامي: عمرو بن حنظلة التميمي بصري. حضر يوم الربذة وهو يوم استؤصل فيه أهل الشام مع حبيش بن دلجة القيني [معجم الشعراء – للإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني – باب من اسمه عمرو، صـ ٢٣٠، بتصحيح وتعليق: الأستاذ الدكتور ف. كرنكو الناشر: مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م.

(٥) ينظر: ديوان القطامي صـ ٤١، تحقيق: د/ إبراهيم السامرائي – أحمد مطلوب – دار النشر: دار الثقافة – الأولى: ١٩٦١م .

(٦) ينظر: ما يجوز للشاعر في الضرورة: محمد بن جعفر القزاز القيرواني أبو عبد الله التميمي، صـ ١٨١، حققه وقدم له وصنع فهارسه: الدكتور رمضان عبد التواب، الدكتور صلاح الدين الهادي، الناشر: دار العروبة، الكويت.

وَلِهَذَا الحَدِيث مَعْنيانِ: أَحدهمَا أَن الْمُؤمن يُسَمِّي الله ﷻ إِذا أكل، فَيحصل لَهُ شَيْئَانِ: الْبركَة فِي الطَّعَام، وَدفع الشَّيْطَان عَنهُ، فَيكون المتناول مِنْهُ قَلِيلا، فَكَأَن الْمُؤمن قد أكل فِي معي وَاحِد، وَالْكَافِر لَا يُبَارك لَهُ لعدم التَّسْمِيَة، ويتناول الشَّيْطَان مَعَه فَيذْهب من الطَّعَام كثير، فَكَأَنَّهُ قد أكل فِي سَبْعَة أمعاء، وَالثَّانِي: أَن الْمُؤمن لاستشعاره الْخَوْف، وَنَظره فِي حل الْمطعم، وحذره من حِسَاب الْكسْب، يقل أكله، وَالْكَافِر لَا يهتم بِشَيْء من ذَلِك فيكثر أكله، وَلِهَذَا الْمَعْنى ترى من قوي خَوفه وحزنه نحيلا، بِخِلَاف أهل الغفلات(١).

وكلا المعنيين يمكن كلام النبي – ﷺ – عليه، ولا مشاحة في ذلك.

كما أنه ليس مراد الحديث حصر الصورة على الأكل دون غيره، وإنما المراد كل ما ينتفع به ظاهرا، من مأكل ومشرب وملبس، وكل ما هو مناف لمعنى التزهد في الحياة، قال تعالى: {ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٢)، ويؤيد ذلك رواية الإمام مسلم « الْمُؤْمِنُ يَشْرَبُ فِي مِعًى وَاحِدٍ، وَالْكَافِرُ يَشْرَبُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ»، وإن كنت أرى انه لا فرق بين الأكل والشرب في الاستخدام اللغوي، لمجيء المطعم في معرض الشراب، لاسيما وإن قام الشراب مقام الطعام في التزود به، والاستغناء عن الأكل به، وذلك كما في قوله تعالى: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلا قَلِيلا مِنْهُمْ}(٣)، ومن لم يطعمه: أي لم يتذوقه، وهو من قول الشاعر:

وَإِنْ شِئْتَ لَمْ أَطْعَمْ نَقَاخًا وَلَا بَرْدَا(٤)

(١) ينظر: مرقاة المفاتيح: ٧/ ٢٦٥٩.

(٢) سورة الحجر: آية: ١٥.

(٣) سورة البقرة: جزء آية: ٢٤٩.

(٤) هذا عجز بيت من الطويل وهو للعرجي في ديوانه صـ: ١٠٩، وتمامه:

فإن شئت حرمت النساء سواكم ... وإن شئت لم أطعم نقاخًا ولا بردًا

وعلى ذلك فلا خلاف بين الروايتين، وإن كانت رواية البخاري أبلغ في الكناية، وأقوى في الدلالة، إذ أن الإكثار في الأكل أكثر دلالة على النهم والشره والجشعة .

والعددان المذكوران في الحديث الشريف الغرض من التعبير بهما شيء آخر غير حصر جنسه في منطوق لفظه، فجاء لغرض التأكيد في الأول، والمبالغة في الوصف في الثاني، وذاك لأن الحديث جاء لغرض بيان الفرق بين المؤمن كامل الإيمان، والكافر الضال، الذي لا يعرف للهدى سبيلا، " فليس المراد به ظاهره وإنما هو مثل ضرب للمؤمن وزهده في الدنيا والكافر وحرصه عليها فكان المؤمن لتقلله من الدنيا يأكل في معى واحد والكافر لشدة رغبته فيها واستكثاره منها يأكل في سبعة أمعاء فليس المراد حقيقة الأمعاء ولا خصوص الأكل وإنما المراد التقلل من الدنيا والاستكثار منها فكأنه عبر عن تناول الدنيا بالأكل وعن أسباب ذلك بالأمعاء ووجه العلاقة ظاهر وقيل المعنى أن المؤمن يأكل الحلال والكافر يأكل الحرام والحلال أقل من الحرام في الوجود" [(١)]، قال الألوسي: والمراد بالسبعة: الكثرة بحيث تشمل المائة والألف مثلاً لا خصوص العدد المعروف، كما في قوله – ﷺ–:{الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ}[(٢)]، ووجه العلاقة ظاهر وكأنه من قبيل الكناية، باطلاق اللفظ وإرادة لازم معناه، لا معناه الحقيقي[(٣)]، مع جواز إرادة المعنى الحقيقي، كما هو حاصل في المناسبة أو الحال التي دعت النبي – ﷺ – إلى قول هذا البيان النبوي الشريف.

---

(١) فتح الباري: ٩ / ٥٣٨ .

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني– شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي: ١٠ / ١٤٨ المحقق: علي عبد الباري عطية الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

(٣) فتح المنعم شرح صحيح مسلم – الدكتور موسى شاهين لاشين: ٨ /٢٨٨.

ولا يخفى ما صنعته تلك المقابلة البديعة في النص النبوي الشريف من إبداع، وما كان لها من أثر بالغ في توضيح المعنى وإظهاره، مع تقويته وتأكيده في النفس، في قوله: المُؤْمِنَ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ وَالكَافِرَ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ ومثل هذا الأسلوب البديعي يشوق النفس، وينشط الفكر للوقوف على المراد من هاتين الصورتين المتشابهتين، وذلك أدعى إلى تثبيته، وتأكيده في الذهن بعد معرفته[١]، ففرق شاسع، وبون واسع بين مؤمن جعل الآخرة أكبر همه ومبلغ علمه، فلم يأخذ منها إلا اليسير، ولم يرتشف إلا القليل، وبين كافر جعل الدنيا أكبر همه، ومبلغ علمه، فحرص عليها، وأكثر منها في شره وجشع، والإكثار مما فيه ضرره في الدنيا والآخرة. والنبي– ﷺ –بذلك رسم الصورة المقابلة بين الفريقين جامعا فيها بين الخصائص التصويرية المتمثلة في الكنايتين المتضادتين، وما يحملها من عناصر تركيبية متفاعلة مع سياق القناعة والرضا في جانب المؤمن، واللهفة والشره وإظهار الجشع والطمع في جانب الكافر، حتى أصبح الفعل من الطرفين ثابتا محقق الوقوع، فوصل بتلك المطابقة إلى شحذ الهمم، وأخذ الحيطة، وتلك من دلائل الإبداع التصويري، والقدرة الفنية، والبلاغة العالية التي اتصف بها البيان النبوي الشريف.

وأيا كان المعنى المراد من الحديث– فإنه "يصور بشاعة أكل الكافر وشربه، ويمتدح اقتصاد المؤمن في أكله وشربه، ويوضح أن قلة الأكل من محاسن الأخلاق، وكثرة الأكل بضده، والمؤمن يعلم على اليقين بأنه ما ملأ آدمي وعاءً شرًا من بطنه، ويلتزم بالتوجيه النبوي الشريف، فيجعل ثلثا لطعامه، وثلثا لشرابه، وثلثا لنفسه".[٢]

❁❁❁❁❁

(١) دراسات منهجية في علم البديع: د / الشحات عبد الرحمن أبوستيت صـ ٢٢٠.
(٢) ينظر: أثر التشبيه في تصوير المعنى صـ ٢٢٧، ٢٢٨.

المبحث الثالث

العدد غير المقيد في أحاديث الفتن وأهوال الآخرة

ذاك سياق يجذب بذاته قلوب المخاطبين قبل أن تصل ألفاظه الأذان، يستوي في ذلك الخاصة والعامة، تحريكا وتشويقا للمتابعة وطلب الزيادة منها، لا لغرض التسلية، والاستمتاع بمعرفة ما غاب وخفي كنهه، وإنما لقصد العظة المسبوقة بالعلم ترغيبا وترهيبا، ومن ثم حرص النبي – ﷺ– في أحاديثه في هذا المقام إلى تنوع أساليبه، حتى يقف كل مخاطب على مراد النبي – ﷺ– من الكلام، فجاءت تلك الأحاديث جزيلة النفع، عظيمة الأثر، دليلا صادقا على صدق النبوة، وبرهانا ساطعا على حقيقة ما يخبر عنه – ﷺ–، فتكونت ثروة من البيان النبوي في هذا السياق وتعددت فيه صور الإقناع والإمتاع، وكان من بين صوره الاعتماد على أسلوب العدد غير المقيد لمعدوده تأكيدا ومبالغة في سرد الفتن وأهوال يوم القيامة، ومن ذلك ما روي عَنْ أَنَسٍ ﷺ [(١)]، قَالَ: لَأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ–لاَ يُحَدِّثُكُمْ بِهِ أَحَدٌ غَيْرِي: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ– يَقُولُ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ، وَيَكْثُرَ الجَهْلُ، وَيَكْثُرَ الزِّنَا، وَيَكْثُرَ شُرْبُ الخَمْرِ، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ، وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً القَيِّمُ الوَاحِدُ**» وعند مسلم «**وَتَرَى الرَّجُلَ الوَاحِدَ، يَتْبَعُهُ أَرْبَعُونَ امْرَأَةً يَلُذْنَ بِهِ، مِنْ قِلَّةِ الرِّجَالِ وَكَثْرَةِ النِّسَاءِ**»[(٢)].

وإنما كانت تلك الأمور الخمس المذكورة من أشراط الساعة مع كونها كانت موجودة فيما كان قبلنا " لأن الخلائق لا يتركون سدى ولا نبي بعد هذا الزمان

---

(١) أنس بن مالك ابن النَّضر الإِمَامُ المُفْتِي المُقْرِئُ المُحَدِّثُ، رَاوِيَةُ الإِسْلاَمِ، خادم رسول الله – ﷺ– رَوَى عَنِ النَّبِيِّ – ﷺ– عِلْماً جَمّاً، دعا له النبي – ﷺ– بالبركة في العلم والمال والولد [سير اعلام النبلاء: ٤/٤١٧].

(٢) صحيح البخاري كتاب النكاح بَابُ يَقِلُّ الرِّجَالُ وَيَكْثُرُ النِّسَاءُ رقم (٥٢٣١)، وصحيح مسلم كتاب الزكاة بَابُ التَّرْغِيبِ فِي الصَّدَقَةِ قَبْلَ أَنْ لَا يُوجَدَ مَنْ يَقْبَلُهَا رقم (٥٢).

فتعين خراب العالم وقرب القيامة"[١]، وخصت بالذكر لكونها مشعرة باختلال الأمور التي يحصل بحفظها صلاح المعاش والمعاد وهي الدين لأن رفع العلم يخل به والعقل لأن شرب الخمر يخل به والنسب لأن الزنى يخل به والنفس والمال لأن كثرة الفتن تخل بهما".[٢]

والمعنى: أنه يقل الرجال بسبب القتل وتكثر النساء، ولهذه الكثرة ينتشر الجهل والفساد ويظهر الزنا والخمر وتكون ذلك أمارة الساعة، وعلامة قربها، والقيم هو من يقوم بأمر من تكفل به، والمراد به هنا من يقوم على النساء. وجملة «حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً القَيِّمُ الوَاحِدُ» توضيح وبيان لما لأبهم في جملتي«وَيَقِلَّ الرِّجَالُ، وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ » فقد أفصحت عن مفهوم القلة والكثرة فيما سبق، ومن ثم فالعددان الموجودان في الحديث الشريف "خَمْسِينَ امْرَأَةً" و"القَيِّمُ الوَاحِدُ" لا يدلان على عدد محدد، أو حصر أفراد عدد النساء في منطوق معدوده، وإنما للمبالغة في الكثرة في قوله "خَمْسِينَ امْرَأَةً"، والتأكيد على فردية المعدود ونوعه في قوله "القَيِّمُ الوَاحِدُ"، حيث إن جملتي الإجمال والإبهام « يَقِلَّ الرِّجَالُ، وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ» قد بنيت كل منها على هذا التقابل البديعي بين القلة في جانب الرجال فعبر بأقل معدود وهو القيم أو الرجل، وأكده نوعا وإفرادا، كما أنه عبر بما هو مفهوم منه الكثرة في المعدود في جانب النساء مبالغة في الوصف، وتأكيدا على إثباته، وكان هذا المفهوم مناسبا ومطابقا لترجمة البخاري حيث صنف الحديث تحت "**بَابُ يَقِلُّ الرِّجَالُ وَيَكْثُرُ النِّسَاءُ**".

وقوله: " لخمسين امرأة " يحتمل أن يراد بها حقيقة هذا العدد، أو يراد كونها مجازا عن الكثرة، ولعل السر فيه أن الأربعة في كمال نصاب الزوجات، فاعتبر الكمال مع زيادة واحدة عليه، ثم اعتبر كل واحدة بعشر أمثالها ليصير فوق الكمال مبالغة في الكثرة، أو لأن الأربعة منها يمكن تألف العشرة، لأن

(١) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري: ٦١/٢.
(٢) فتح الباري – ابن حجر العسقلاني: ١/ ١٧٩.

فيها واحد أو اثنين وثلاثة وأربعة، وهذا المجموع: عشرة، ومن العشرات المئات، ومن المئات الألوف، فهي أصل جميع مراتب الأعداد، فزيد فوق الأصل واحد آخر ثم اعتبر كل واحدة منها بعشر أمثالها أيضا تأكيدا للكثرة، ومبالغة فيها"(١).

ويحتمل أن يكون ذلك في الزمان الذي لا يبقى فيه فلا يعرف حينئذ أحد حدود الله، ولا يقف على شرعه، ولا يبحث عن حلاله وحرامه، ولا يوجد ما يردعه، "فيتزوّج الواحد بغير عدد جهلاً بالحكم الشرعي"(٢).

ويؤيد مفهوم المبالغة في الكثرة رواية الإمام مسلم التي نصت على العدد "أربعين" في قوله – ﷺ– «وَتَرَى الرَّجُلَ الوَاحِدَ، يَتْبَعُهُ أَرْبَعُونَ امْرَأَةً يَلُذْنَ بِهِ»، ولا خلاف بين الروايتين لأن الأربعين داخلة في الخمسين، أو المراد المبالغة في كثرة النساء بالنسبة إلى الرجال أو الأربعين عدد من يلذن به، والخمسين عدد من يتبعه وهو أعم من أن يلذن به فلا منافاة (٣). كما أنه لا خلاف بين التعبير بالقيم عند البخاري في قوله «**القَيِّمُ الوَاحِدُ**» وبالرجل عند مسلم «**وَتَرَى الرَّجُلَ الوَاحِدَ**» لأن "ال" في "القيم" للعهد إشعارا بما هو معهود من كون الرجال قوامين على النساء قال تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ ﴾(٤)، وإن كان التعبير بالرجل أثبت في الدلالة على المراد؛ توافقا مع التعبير القرآني، ولأن القوامة يمكن أن تكون للنساء في بعض الحالات، لاسيما وأن القرآن حصر القوامة في بعض ما فضل الله بعضهم على بعض، وبالإنفاق في الأموال.

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري: ٢ / ٨٤، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري – محمد بن يوسف شمس الدين الكرماني: ٢/٦٠– الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان.

(٢) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: ١ / ١٨١.

(٣) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: ٨ / ١١٥.

(٤) سورة: النساء: جزء آية: ٣٤ .

ومما هو في سياق الفتن وأشراط الساعة وكان لأسلوب العدد غير المقيد مظان بلاغية فيه ما روي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ – ﷺ–قَالَ: **«يَتْبَعُ الدَّجَّالَ مِنْ يَهُودِ أَصْبَهَانَ، سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَيْهِمُ الطَّيَالِسَةُ»**(١) والطيلسان: ثوب معروف، لباس الأغنياء ومنه قول الشاعر:

تبدّلت بعد الطيلسان عباءةً ... وبعد سنان الرمح ملحًى ومخلبا(٢)

والمعنى: أن الدجال عند خروجه على الناس يتبعه خلق كثير ممن يفتتن به، فإذا كان من الأغنياء تلك الكثرة العظيمة، فما بال الفقراء.

والعدد في هذا الحديث الشريف يحتمل أن يراد به مفهومه المنطوق، وإن كان لا يعلم العلة من اختصاص هذا العدد بالذكر وحصر أفراد جنسه فيه، ويحتمل أن يكون مفهوم العدد هنا على غير منطوقه، ولم يقصد حصر أفراد جنسه فيه، وإنما جيء به لغرض بلاغي رمى إليه سياق الكلام، وهو المبالغة في الكثرة، أي يتبعه خلق كثير، ويفتتن بفتنته أناس كثيرة، قال صاحب فتح المنعم: « يَتْبَعُ الدَّجَّالَ مِنْ يَهُودِ أَصْبَهَانَ، سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَيْهِمُ الطَّيَالِسَةُ» جمع طيلسان وهو ثوب معروف والعدد للتكثير"(٣)، ويؤيد ذلك أيضا رواية للحديث نصت على أن العدد يزيد عن السبعين ألفا ممن يتبعونه، قال النووي هكذا هو في جميع النسخ ببلادنا "سبعون" بالسين وبالباء وهو رواية الأكثرين وفي رواية "تسعون ألفا" بالتاء"(٤).

---

(١) صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة – بَابٌ فِي بَقِيَّةٍ مِنْ أَحَادِيثِ الدَّجَّالِ رقم (١٢٤).

(٢) البيت من الطويل ولم أعثر على قائله، وهو من شواهد أساس البلاغة للزمخشري دون نسبة ينظر: [أساس البلاغة– أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله: ٢ / ١٦٤ مادة (ل ح و) – تحقيق: محمد باسل عيون السود – الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان– الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م].

(٣) فتح المنعم شرح صحيح مسلم: ١٠/ ٥٥٤.

(٤) شرح النووي على مسلم: ١٨ / ٨٥.

وقوله – ﷺ–: يَتْبَعُ الدَّجَّالَ، يمكن أن يكون ثلاثيًّا من باب فتح أي يسير خلفه وأن يكون بتشديد التاء من باب افتعل بمعنى أنهم يطيعونه(١)، بيد أن رواية التشديد أبلغ في المقام، وأنسب للسياق، وأكثر وصفا للحال، حيث إن الوقوع في الفتنة لا يحدث بالسير خلفه، وإنما بإتباعه فكرا وقولا وعملا، فتذهب عقولهم، وتضل أفكارهم، وتزيغ أعينهم جراء ما يرونه منه من أفعال وأقوال، وتلك الحالة التي عليها الناس يصورها التشديد في بنية الكلمة (يتَّبع)، وتلك من أسرار العربية، وخصائص تراكيبها البديعة، والنبي – ﷺ - خير من يمسك بزمامها، ويقف على أسرارها، وكيف لا ؟!، وهو أفصح العرب لسانا، وأكملهم بيانا، وأوضحهم لفظا، وأتمهم معنى– ﷺ– " فكم في إيراده وإصداره من مثلٍ يعجز عن مباراته في البلاغة كل بطلٍ"(٢).

ومما هو من المبالغة في العدد في البيان النبوي الشريف، ما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ– ﷺ– قَالَ: «**يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا، وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ**»(٣) وفي مسلم: «**إِنَّ الْعَرَقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيَذْهَبُ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ بَاعًا، وَإِنَّهُ لَيَبْلُغُ إِلَى أَفْوَاهِ النَّاسِ، أَوْ إِلَى آذَانِهِمْ**»(٤)

من مشاهد يوم القيامة ومواقفها المفزعة، تلك الصورة التي يقصها النبي– ﷺ– على أصحابه على سبيل الإرشاد، ترهيبا وتخويفا، وذلك حين يرسم صورة العرق الذي يتصبب من الناس خوفا وفزعا من هول الموقف، وكثرة كروب

(١) الكوكب الوهاج والرَّوض البَهَّاج في شرح صحيح مسلم: ٢٦ / ٣٠٤ .
(٢) المستطرف في كل فن مستطرف – شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي صـ ٣٥– الناشر: عالم الكتب – بيروت– الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ
(٣) صحيح البخاري – كِتَابُ الرِّقَاقِ – بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ } رقم (٦٥٣٢).
(٤) صحيح مسلم: كتاب الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا– بَابٌ فِي صِفَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَعَانَنَا اللهُ عَلَى أَهْوَالِهَا رقم (٦١).

الموقف، أو من دنو الشمس على الرؤوس، حتى يتمنى أحدهم أن ينتهي من هول هذا الموقف ولو إلى النار.

ومعنى"لَيَذْهَبُ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا"- كما ذهب صاحب فيض القدير-: أي ينزل فيها من كثرته شيء كثير جدا فالسبعين للتكثير لا للتحديد(١)، وتلك إشارة إلى أن العدد لم يأت تقيدا للمعدود، أو حصرا لأفراد جنسه فيه، بل مبالغة في الوصف، والتأكيد على تلك الكثرة التي جعلت العرق يجري ويذهب في الأرض ذهاب الماء الكثير في البحار والأنهار، وذاك يتناسب ومقام النصح والإرشاد القائم على الترهيب من أهوال القيامة، والتخويف من مشاهدها، كما أن تلك الصورة المفزعة تتلاءم مع سياق الحديث ومطابقته لبابه لدى البخاري ومسلم، فقد جاء هذا الحديث في سياق مخاطبة الله تعالى للظالمين، الذين يبخسون الناس في الكيل والميزان، وتوعدهم تهديدا وتحذيرا من غضبه وبطشه يوم القيامة فجاء تحت باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٢) وفي هذا الإنكار والتعجيب والظن، ووصف اليوم بالعظم، وقيام الناس فيه لله خاضعين، ووصفه ذاته برب العالمين: بيان بليغ لعظم الذنب وتفاقم الإثم في التطفيف وفيما كان في مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط، والعمل على السوية والعدل في كل أخذ وإعطاء، بل في كل قول وعمل"(٣)، فالسياق في الآيات قائم على التهديد والتحذير من هول يوم القيامة الموصوف بكونه عظيما، والمبالغة في ذلك بجعل القيام للوقوف بين يدي الله تعالى الموصوف بكونه "رب العالمين"، والحاصل أن هذا المقام مقام هائل لا تفي بهوله العبارات، ولا

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير: ٢/ ٣٧٦.

(٢) سورة المطففين: الآيات: ٤ – ٦.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل- أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري جار الله: ٤ / ٧١٨، ط: دار الكتاب العربي – بيروت- الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

تحيط به الأوهام، ولا الإشارات، وأبلغ ما نطق به في ذلك الناطقون قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾[1]، فهذا السياق المشحون بالتحذير والوعيد في عنوان الباب عند البخاري، يجعل الحديث مبنيا على المبالغة في الترهيب والتخويف، ومثل هذا لا يتناسب ومعنى الحصر والتقييد للعدد – وإن كان كثيرا – وإنما يحتاج إلى المبالغة في الوصف والتأكيد على كثرة العرق المكنى به عن هول ما يراه المرء من أحوال وأهوال ومواقف تذهل فيها كل مرضعة عما أرضعت ويتمنى الناس الخلاص ولو إلى النار .

والتعبير بالإلجام في قوله – ﷺ–:« **وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ**» مجاز لغوي فهو استعارة تبعية في الفعل "يلجمهم"، حيث شبه إحاطة الماء بهم والوصول إلى فمهم حتى يعلو إلى أذانهم والتحكم فيهم بعدم الكلام باللجام الذي يلتف حول أذن الناقة إحكاما للتملك منها، وتصرفها حسب إرادته، فيصير العرق الكثير العظيم لهم بمنزلة اللجام فيمنعهم من الكلام، وهذا ظاهر واضح في قوله – ﷺ–: «**تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ**» – قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ رضي الله عنه[2] ِ: فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ؟ أَمَسَافَةَ الْأَرْضِ، أَمِ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ – قَالَ: «**فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا**» قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ[3].

---

(١) سورة ص: الآيتان: ٦٧ –٦٨ .

(٢) سُلَيْم بن عامر الكلاعي الخبائري الحِمْصِيُّ. وُلِدَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ – ﷺ– حَدَّثَ عَنْ: أَبِي الدَّرْدَاءِ، وَتَمِيْمِ الدَّارِيِّ، وَالمِقْدَادِ بنِ الأَسْوَدِ، وَعَوْفِ بنِ مَالِكٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، عَاشَ سُلَيْمٌ بَعْدَ سَنَةِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ وَمائَةٍ [سير أعلام النبلاء: ٥/ ٤٩٤].

(٣) صحيح مسلم: كتاب الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا– بَابٌ فِي صِفَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَعَانَنَا اللهُ عَلَى أَهْوَالِهَا رقم (٦٢)– عن سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ.

والفائدة من الإخبار بتلك الأهوال والكروب، وذكر تلك المشاهد المفزعة والمبالغة في تصويرها وتصورها هي "أن يتنبه السامع فيأخذ في الأسباب التي تخلصه من تلك الأهوال ويبادر إلى التوبة من التبعات ويلجأ إلى الكريم الوهاب في عونه على أسباب السلامة ويتضرع إليه في سلامته من دار الهوان وإدخاله دار الكرامة بمنه وكرمه"(١).

ومما تجدر الإشارة إليه أن العدد "سبعين ألفا " كانت له مظان كثيرة في أحاديث النبي– ﷺ– عن القيامة وأهوالها، ووصف الجنة وأهلها، والنار، والمعذبين في جحيمها، قصدا للمبالغة في الوصف ترغيبا وتحببا، أو ترهيبا وتخويفا، ومثل هذا يتناسب ومقام النصح والإرشاد.

ومن ذلك في وصف الجنة وأهلها ترغيبا وتحببا وهو كما وقع في صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – ﷺ– قَالَ: «**يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا زُمْرَةٌ وَاحِدَةٌ، مِنْهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ**»(٢) وعند مسلم عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ (٣) ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ – ﷺ–، قَالَ: «**لَيَدْخُلَنَّ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا، أَوْ سَبْعُ مِائَةِ أَلْفٍ، لاَ يَدْخُلُ أَوَّلُهُمْ حَتَّى يَدْخُلَ آخِرُهُمْ، وُجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ**» (٤)

صورة من مشاهد يوم القيامة ينقلها النبي– ﷺ– بشارة لصحابته الكرام باعثا فيهم الفرحة والسرور، وهذا الخبر بما يحمله من معان غيبية هدية من الله

(١) فتح المنعم شرح صحيح مسلم: ١٠ / ٤٧٠ .

(٢) صحيح البخاري – كِتَابُ الرِّقَاقِ – بَابٌ: يَدْخُلُ الجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ رقم (٦٥٤٢).

(٣) سهل بن سعد: الإِمَامُ، الفَاضِلُ، المعمَّر، بَقِيَّةُ أَصْحَابِ رَسُوْلِ اللهِ – ﷺ– أَبُو العَبَّاسِ الخَزْرَجِيُّ، الأَنْصَارِيُّ، السَّاعِدِيُّ. وَكَانَ أَبُوْهُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَهُوَ آخِرُ مَنْ مَاتَ بِالمَدِيْنَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَكَانَ مِنْ أَبْنَاءِ المائَةِ.[سير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٣٢].

(٤) صحيح مسلم: كتاب الإيمان– بَابُ الدَّلِيلِ عَلَى دُخُولِ طَوَائِفَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ رقم (٣٧٣).

تعالى للمؤمنين، ومنحة منه سبحانه لعبادة المخلصين، ومن ثم فالحديث جاء في سياق امتنان الله على عبادة، وهو مقام لا يستطيع أحد أن يحده بحد، أو يقف على حقيقته واصف، فجاءت ألفاظ الحديث متناسبة مع سياقاته ومقامه من المبالغة في الوصف، وقوة في اللفظ، وتماسك في العبارة، فسيق هذا القبس النبوي الشريف مشتملا على سمات بلاغية، وأساليب اقناعية ساعدت على تقوية المعنى الغيبي وتأكيده في نفوس الصحابة الكرام.

والتعبير بالعدد "سبعون ألفا" في هذا الحديث به احتمالان:

الاحتمال الأول: أن العدد على حقيقته، وأن الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب سبعون ألفا دون زيادة أو نقصان .

والاحتمال الثاني: أن يكون المراد منه المبالغة فيمن يدخلون الجنة بغير حساب ولا سابقة عذاب، وهذا الاحتمال أولى بالقبول، وأنسب لسياق الكلام وأشدهما قربا لمقتضى حال المُعْطِي مع المُعْطَى له، لمجيئه في سياق تعداد امتنان الله تعالى على عباده الصالحين، والمنعم إذا أعطى كان عطاؤه له بداية لا تنتهي، ونهايته لا تزال تبدأ، فالعدد في الحديث لم يكن منطوقه مطابقا لمفهوم لفظه، بل جاء متحررا من قيود اللفظ إلى آفاق المبالغة في الوصف. قال الكرماني: "فإن قلت فهم أكثر من هذا العدد قلت الله أعلم بذلك مع احتمال أن يراد بالسبعين التكثير"(١). وقال المناوي: "والظاهر أن المراد التكثير لا خصوص العدد"(٢). ويؤيد ذلك أمور منها: حذف تمييز العدد في قوله: "سبعون ألفا" قصدا للتعمية الداعية إلى التعميم في العدد، وعدم حصره في أفراد معينة، مبالغة في كثرة الداخلين الجنة بغير حساب، ومنها تلك الروايات الواقعة في كتب الصحاح والسنن والمسانيد، والمحكوم بصحتها،

(١) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري: ٢٣ / ٤٤.
(٢) فيض القدير: ٤ / ٧٨.

الدالة على أن الذين يدخلون الحنة بهذه الصفة غير محصورين في العدد المنصوص عليه في روايتي البخاري ومسلم.

ففي سنن الترمذي عن أبي أُمَامَةَ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ– يَقُولُ: «وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا وَثَلَاثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِهِ»(١).

ومعنى المعية في قوله في قوله: "مع كل ألف سبعون ألفا" أو "مع كل واحد منهم سبعون الفا" يحتمل أن يدخلوا بدخولهم تبعا لهم وإن لم يكن لهم مثل أعمالهم كما مضى حديث المرء مع من أحب ويحتمل أن يراد بالمعية مجرد دخولهم الجنة بغير حساب وإن دخولها في الزمرة الثانية أو ما بعدها وهذه أولى(٢).

وفي مسند علي بن الجعد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ–: "سَأَلْتُ اللَّهَ ﷻ الشَّفَاعَةَ لِأُمَّتِي فَقَالَ لِي: لَكَ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ،

(١) سنن الترمذي– محمد بن عيسى الترمذي – أَبْوَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ– باب منه –رقم (٢٤٣٧) تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون – مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر– الثانية، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

(٢) فتح الباري:١١ / ٤١٣. وقد ذكر صاحب عمدة القاري رواية عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها قالت فقدت رسول الله – ﷺ– ذات يوم فاتبعته فإذا هو في مشربة يصلي فرأيت على رأسه ثلاثة أنوار فلما قضى صلاته قال من هذه قلت عائشة فقال هل رأيت الأنوار قلت نعم قال "إن آت أتاني من ربي ﷻ فبشرني أن الله تعالى يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا بغير حساب ولا عذاب ثم أتاني في اليوم الثاني آت من ربي فبشرني أن الله تعالى يدخل من أمتي مكان كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا بغير حساب ولا عذاب ثم أتاني في اليوم الثالث آت من ربي فبشرني أن الله تعالى يدخل من أمتي مكان كل واحد من السبعين ألفا المضاعفة سبعين ألفا بغير حساب ولا عذاب فقلت يا ربي لا تبلغ هذا أمتي قال يكملون من الأعراب ممن لا يصوم ولا يصلي. (عمدة القاري: ١٥/ ١٥٦).

فَقُلْتُ: يَا رَبِّ زِدْنِي، فَقَالَ، فَإِنَّ لَكَ هَكَذَا فَحَثَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ"(١).

وقوله: (وَثَلَاثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِهِ) كناية عن العطاء الكثير والمبالغة في وصفه، فليس ثمة حثو ولا كف ولا جهات – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا –، وهو من ضرب الْمثل بالحثيات لِأَن شَأْن الْمُعْطى إِذا استزيد أَن يحثى بيدَيْهِ بِغَيْر حِسَاب (٢).

وفي إضافة الأمة إلى النبي – ﷺ– في قوله: "من أمتي" زيادة امتنان وتكريم لما فيها من الاختصاص، أي أن هذه العطية الربانية، والمنحة الإلهية خاصة بأمة النبي محمد – ﷺ– دون غيرها من سابق الأمم.

وتلك العطية هدية من الله للنبي – ﷺ– جعلت الصحابة الكرام المخاطبين المعنيين بهذا الأمر قبول تلك الهدية فقام أحدهم وهو الصحابي الجليل عُكَّاشة ابن محصن فقال: (ادع الله أن يجعلني منهم): ما أحسن هذا السؤال المشير إلى أنه من أصحاب الكمال، بل من أرباب الوصال، حيث علم أنه لم يصل إلى هذا المقال والحال إلا بوسيلة دعائه – ﷺ– من ذي الجلال والجمال. قال: « اللهم اجعله منهم» ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ» (٣).

والظاهر أن الأول كان ناويا قاصدا للقيام بأفعالهم، بل متصفا بأحوالهم، وأن الثاني طلبه على وجه التمني من غير التعني، وطريق التقليد في التحلي من

---

(١) مسند ابن الجعد – علي بن الجَعْد بن عبيد الجَوْهَري البغدادي – ما جاء عن طريق مَخْلَدُ بْنُ خُفَافٍ حديث رقم (٢٨٤٩)– تحقيق: عامر أحمد حيدر– الناشر: مؤسسة نادر – بيروت – الأولى، ١٤١٠ – ١٩٩٠.

(٢) فيض القدير: ٤/ ٧٨.

(٣) صحيح البخاري – كِتَابُ الرِّقَاقِ – بَابٌ: يَدْخُلُ الجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ رقم (٦٥٤٢) – صحيح مسلم: كتاب الإيمان– بَابُ الدَّلِيلِ عَلَى دُخُولِ طَوَائِفَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ رقم (٣٧٣).

غير قصد التجلي. (١) فكانت تلك الدعوة هدية ومكافأة لعُكَّاشَةَ لحسن إنصاته وتفهمه وتفكره في الألفاظ التي تخرج من فِيِّ النبي – ﷺ– فسبق غيره بالطلب فاستحق البشارة، وما أعظمها ؟!!، إذ أنه طلب عُكَّاشَةُ الدعاء، فبادره النبي – ﷺ– بإجابة الدعاء كما وقع عند مسلم قَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ»، بخلاف الطالب الثاني الذي فاتته فرصة التفكر والتفهم إلا بعد طلب عُكَّاشَةَ، فكان جواب النبي – ﷺ– قاطعا لطلب الآخرين بقوله: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»، فكأنه – ﷺ– " لم يؤذن له في ذلك المجلس بالدعاء إلا لواحد، وفيه حث على المسارعة إلى الخيرات وطلب دعاء الصالحين لأن في التأخير آفات"(٢).

وإنما استحق الـ "سَبْعُونَ أَلْفًا " دخول الْجَنَّة بِغَيْرِ حِسَابٍ ولا عذاب لوصولهم بتلك الصفات التي اتصفوا بها من كونهم « لَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» إلى "درجة الخواص المعرضين عن الأسباب بالكلية الواقفين مع المسبب ولا ينظرون سواه فكمل تفويضهم وتوكلهم من كل وجه ولم يكن لهم اختيار لأنفسهم ليفعلوا شيئا منها" (٣).

ومما هو وصف لطعام أهل الجنة ووقع فيه العدد للمبالغة ما ورد عن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ النَّبِيُّ – ﷺ–: «تَكُونُ الأَرْضُ يَوْمَ القِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً، يَتَكَفَّؤُهَا الجَبَّارُ بِيَدِهِ كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ، نُزُلًا لِأَهْلِ الجَنَّةِ» فَأَتَى رَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ فَقَالَ: بَارَكَ الرَّحْمَنُ عَلَيْكَ يَا أَبَا القَاسِمِ، أَلاَ أُخْبِرُكَ بِنُزُلِ أَهْلِ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: «بَلَى» قَالَ: تَكُونُ الأَرْضُ خُبْزَةً وَاحِدَةً، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ – ﷺ–، فَنَظَرَ النَّبِيُّ – ﷺ– إِلَيْنَا ثُمَّ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَلاَ أُخْبِرُكَ بِإِدَامِهِمْ؟ قَالَ: إِدَامُهُمْ بَالاَمٌ وَنُونٌ، قَالُوا: وَمَا هَذَا؟ قَالَ: ثَوْرٌ وَنُونٌ، يَأْكُلُ مِنْ زَائِدَةِ كَبِدِهِمَا سَبْعُونَ أَلْفًا. (٤)

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٨ / ٣٣١٦.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٨ / ٣٣١٦.

(٣) فيض القدير: ٤ / ٧٨.

(٤) صحيح البخاري – كتاب الرقاق بَابٌ: يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ يَوْمَ القِيَامَةِ حديث رقم (٦٥٢٠) – صحيح مسلم – كتاب صفة القيامة والجنة والنار – باب نزل أهل الجنة حديث رقم (٣٠).

ومعنى الحديث أن الله تعالى يجعل الأرض كالطلمة والرغيف العظيم، وحمله بعضهم على ضرب المثل فشبهها بذلك في الاستدارة والبياض والأولى حمله على الحقيقة مهما أمكن وقدرة الله صالحة لذلك بل اعتقاد كونه حقيقة أبلغ. (١)

والنون: الحوت، وزائدة الكبد هي القطعة المنفردة المتعلقة بها، وهي أطيبه؛ ولهذا خص بأكلها السبعون ألفا ولعلهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب فضلوا بأطيب النزل ويحتمل أن يكون عبر بالسبعين عن العدد الكثير ولم يرد الحصر فيها في ذلك القدر وهذا معروف في كلام العرب.(٢)

وأما الحديث عن النار وأهلها وجاء العدد فيه لغرض المبالغة في الوصف بالكثرة ما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ – ﷺ–، إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ – ﷺ–: «**تَدْرُونَ مَا هَذَا؟**» قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا**»(٣)

والوجبة: السقطة من الهدد وأصْل الْوُجُوبُ: السُّقوط والوُقوع.(٤)

والمعنى كُنَّا مع رسول الله –ﷺ– يومًا ففاجأنا سماع رسول الله – ﷺ– سقطة وهذه الأشياء الساقطة من علو إلى سفل. وفي قوله: (أتدرون ما هذا) دليل

(١) صحيح البخاري – كتاب الرقاق بَابٌ: يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ يَوْمَ القِيَامَةِ حديث رقم (٦٥٢٠) – صحيح مسلم – كتاب صفة القيامة والجنة والنار – باب نزل أهل الجنة حديث رقم (٣٠) .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٧ / ١٣٥.

(٣) صحيح مسلم – كتاب صفة القيامة والجنة والنار – بَابٌ فِي شِدَّةِ حَرِّ نَارِ جَهَنَّمَ وَبُعْدِ قَعْرِهَا وَمَا تَأْخُذُ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ حديث رقم (٣١).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر– مجد الدين محمد بن محمد الشيباني الجزري ابن الأثير: ٥ / ١٥٤ مادة: (وجب) – تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي، ط: المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

على أنهم حين سمعوا الوجبة خرق الله لهم العادة فسمعوا ما منعه غيرهم، وإلا فالعادة تقتضي مشاركة غيرهم في سماع هذا الأمر العظيم. (١)

وأما التعبير بالسبعين هنا وتمييزه بالخريف والمراد به السنة منذ سبعين عاما، فيحتمل أن يكون العدد مطابق لمعدوده منطوقا ومفهوما، ويحتمل أن يراد به المبالغة في الوصف، لاسيما وأن السياق جاء في معرض الحديث عن النار ترهيبا وتخويفا، واختيار تلك المدة الزمنية من العمر لأنها حد المعترك، إذا وصل إليه المرء يشعر بقرب الأجل فيكون الشعور بالخوف والندم أشد وأعظم، ومن ثم يسمع الحديث سماع المشاهد المعاين للأمر، "فالْمرَاد الْمُبَالغَة فِي الْبعد وَكَثِيرًا مَا يَجِيء السبعون عبارَة عَن التكثير"(٢).

ومن ذلك – أيضا – ما ورد عنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ –ﷺ–: «**يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا**»(٣).

وجملة: "لها سبعون ألف زمام" جملة حالية، والزمام: ما يجعل في أنف البعير يشد عليه المقود فيحتمل أن يكون ذلك على حقيقته، وأن تكون تمثيلاً لعظمها وفرط كبرها بحيث إنها تحتاج في الإتيان بها إلى هذه الأزمة(٤)، وهذا يدل على هول هذه النار ـ نسأل الله أن يعيذنا والمسلمين منها، ومن هول ذلك اليوم؛ لأن الله تعالى جعل سبعين ألف ملك مع كل زمام من سبعين ألف زمام يجرون بها جهنم والعياذ بالله. فيؤتى بجهنم بهذه الصفة تعرض على الناس

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم– أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي: ٧ /١٨٨ – حققه وقدم له: محيي الدين ديب ميستو وآخرون – الناشر: دار الكلم الطيب، دمشق – بيروت–: الأولى، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

(٢) الديباج على شرح صحيح مسلم: ٣/ ٢٣٤.

(٣) صحيح مسلم – كتاب صفة القيامة والجنة والنار – بَابٌ فِي شِدَّةِ حَرِّ نَارِ جَهَنَّمَ وَبُعْدِ قَعْرِهَا وَمَا تَأْخُذُ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ حديث رقم (٢٩).

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين: ٤/ ٢٩٠.

في ذلك الموقف، وهناك: {تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} (١)، فهذا العدد الكبير من الملائكة يدل على أن الأمر عظيم والخطر جسيم، والعدد المذكور لا يتناسب مع عظم الموقف إلا إذا قصد منه المبالغة في الوصف بالكثرة، دون الوقوف على حد منطوقه، قال صاحب فتح المنعم: "والعدد المذكور مراد به التكثير"(٢).

وجاء في المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: "وأما هذا العدد المحصور للملائكة فكأنه عدد رؤسائهم، وأما جملتهم فالعبارة عنها ما قال الله تعالى: {وَمَا يَعلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلا هُوَ}(٣).

فسياق الكلام يسير في فلك وصف النار وعظم شأنها، سالكا طرق الترهيب والتخويف والتهويل من شأنها، وتلك الحال تحتاج إلى المبالغة في الوصف بالكثرة، الحلقة منها " لو جمع حديد الدنيا ما عدل منها حلقة واحدة على كل حلقة سبعون ألف زباني، فإذا انفلتت لم يقدر أحد على إمساكها لعظم شأنها"،(٤) وهذا يقتضي أن يخرج العدد عن مفهوم منطوقه إلى غرض المبالغة في الكثرة التي لا يحدها حد، ولا يقف على وصفها واصف، إيمانا وتصديقا بما جاء في كتاب الله تعالى بقوله جل شأنه وعظم ثناؤه: { وَمَا يَعلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلا هُوَ}(٥).

ومن خلال عرض أحاديث الفتن وأهوال يوم القيامة من الصحيحين، يتضح أن الأعداد الموصوف بها السياق جاءت على سبيل المبالغة في الوصف ترغيبا

---

(١) سورة: الحج أية: ٢.

(٢) فتح المنعم: ١٠ / ٤٥٧.

(٣) سورة: المدثر أية: ٧٤ – وينظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: ٧/ ١٨٦.

(٤) التوضيح لشرح الجامع الصحيح – ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري: ١٩ / ١٨٢ الناشر: دار النوادر دمشق – سوريا – الأولى، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.

(٥) سورة المدثر: أية: ٧٤.

وترهيبا، وهذا يتلاءم وسياقات الحديث عن القيامة وأهوالها، من اختلاف ناموس الكون بأكمله، وتتغير مفاهيم الدنيا إلى ما يقتضيه السياق ويطلبه المقام، وتلك سمة من سمات البيان النبوي الشريف النابع من بلاغة القرآن الكريم، وهذا كثير شائع في الأساليب العربية، كأن تقول: نصحتك سبعين مرة، ودعوت لك سبعين مرة، وزرتك سبعين مرة، فالأعداد –هنا – لم يقصد بها ما يفهم من منطوقها العددي، وإنما ذكرت لغرض المبالغة في كثرة القيام بالفعل وتكراره لحد المبالغة فيه. ومنه قول عنترة مفتخرا [١]:

يا عبل لو أني لقيت كتيبة * سبعين ألفا ما رهبت لقاها**
وأنا المنية وابن كل منية * وسواد جلدي ثوبها ورداها**

ومنه قول على بن أبي طالب . ﷺ .: [٢]

لَأَصْبَحَنَّ الْعَاص وَابْنَ العاصي * سَبْعِينَ أَلْفاً عاقدي النواصي**

فالعدد فيما سبق لم يأت لحصر أفراد معدوده فيه، كما أنه لا يوجب أن يكون الحكم فيما وراءه مخالفاً له، أو لما قبله . وهو الأولى بالقبول والرجحان لمطابقته لمقتضى الحال، ولما هو مفهوم من السياق الدلالي للألفاظ، والتحليل البلاغي للبيان النبوي الذي اشتمل عليه تلك الشواهد والمثل النبوية الشريفة .

❁❁❁❁❁

(١) هو عنترة بن عمرو بن شداد العبسي، وقيل شداد عمه، وكان عنترة قد نشأ في حجره فنسب إليه دون أبيه، شهد حروب "داحس وغبراء " فحسن فيها بلاؤه، وحمدت مشاهده، له ديوان شعر معروف [ينظر: الشعر والشعراء: ٢٥٠].

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي حديد: ٧٧٩/١، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، ط، دار الكتب العلمية بيروت . لبنان .، الأولى، ١٤١٨هـ . ١٩٩٨م، وصبحه: سقاء الصبوح وقت الصباح. ويروى «لأصحبن» من الصحبة ولعله تحريف. شبه = =إنالة المكروه بإنالة المحبوب على سبيل التهكم، فهو استعارة تصريحية تهكمية. ويجوز أنه شبه الفرسان لإتيانهم صباحا بالصبوح على سبيل المكنية التهكمية، ولأصبحن: تخييل. وسبعين ألفاً: مفعول ثاني. والمراد به الكثرة، والعاقدين: جمع عاقد، والمراد: نواصي خيلهم أو أطراف عمائمهم من خلفهم أو شعور رؤوسهم. وعقد الناصية من أمارات الشجاعة والإشاحة في القتال.

المبحث الرابع

العدد غير المقيد في البيان النبوي بين التأثر والتأثير

أولا: تأثر البلاغة النبوية بالأسلوب القرآني المعجز

البيان النبوي مفصل لما أجمل نظمه وموضح لما خفي مراده في القرآن الكريم، وهو بذلك نتيجة لما وقع في نفس النبي -ﷺ- من ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه، ومن ثم كان تأثير الأسلوب القرآني المعجز في بيان النبي -ﷺ- تأثيرا قويا، حيث تأثر البيان النبوي بسياقات القرآن الكريم ومقاماته، فكانت أساليبه اللفظية متشابهة مع أساليب القرآن الكريم وألفاظه، ومعانيه مستوحاة من أغراضه ومعانيه فكان كلامه -ﷺ- وحيا من الله تعالى، تكسوه جلالة المعاني، وتزينه قوة الألفاظ الدالة تلك المعاني وتحديدها تحديدا واضحا، ولعل السبب في ذلك هو اتحاد الغاية من الكتاب والسنة، أو وجود العامل المشترك بينهما، وهو بيان مراد الحق من الخلق تشريعا لأحكام، أو تهذيبا للنفوس ترغيبا وترهيبا، قال رسول اللَّهِ -ﷺ-: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ»(١).

وقد ظهر تأثر البيان النبوي بالقرآن الكريم جليا في التعبير بأسلوب العدد غير المقيد لمعدوده، أو ما يطلق عليه بالعدد الكنائي، الواقع في القرآن الكريم من حيث أغراضه وسياقاته المختلفة لقصد تأكيد المعنى في النفس، أو المبالغة في الوصف ترغيبا وتحببا، أو ترهيبا وتخويفا.

وقد سبق أن المعدود عندما يكون مفردا أو مثنى يعرف عدده من خلال معدوده فإذا قلت جاءني رجل، أي: واحد، وجاءني رجلان، أي: رجلان وما زاد على ذلك لا يعلم عدده إلا بالتنصيص عليه لفظا، وهذا هو الأصل في ذلك، ولكن قد يذكر العدد فيما كان معدوده مفردا أو مثنى لغرض التأكيد

---

(١) سنن أبي داود – أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السِّجِسْتاني – كتاب السنة – باب في لزوم السنة – حديث رقم (٤٦٠٤) المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد– الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

والتقرير وهذا الأسلوب وقع كثيرا في البيان النبوي الشريف – كما مر بيانه في ثنايا البحث في أكثر من موضع، وقد تأثر النبي –ﷺ– في ذلك بأسلوب القرآن الكريم، والذي جاء العدد بهذه الصورة تأكيدا وتقريرا للمعنى، ومثل ذلك التأثر، تأكيدا للمعنى، وتركيزا عليه وتقريره في النفس ومنه قوله تعالى: { فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً}(١).

والمراد بالنفخة –هنا– النفخة الأولى التي عندها خراب العالم قال الألوسي: والمراد بالنفخة الواحدة، التي عندها خراب العالم، كما قال ابن عباس وقال ابن المسيب ومقاتل: هي النفخة الآخرة، والأول أولى لأنه المناسب لما بعد، وإن كانت الواو تدل على الترتيب لكن مخالفة الظاهر من غير داع مما لا حاجة إليه "(٢).

ولفظ ﴿ نَفْخَةٌ﴾ على وزن "فعلة"– بفتح الفاء، وسكون العين، وفتح اللام، وهي تدل على الفعلة الواحد، أي: القيام بالفعل مرة واحدة، ومن ثم فهي تدل على الوحدة والأفراد في ذاتها، قال ابن الحاجب: "والمرة من الثلاثي المجرد الذي لا تاء فيه على فعله، نحو: ضربه، وقتله(٣)": أي: بناء المرة الواحدة من الثلاثي المجرد من الزوائد الذي لا تاء فيه على (فعلة) بفتح السكون، فتح، نحو ضربت صربه، وقتلت قتله، وقمت قومه– وقعدت قعدة(٤)". وقال ابن سراج: وأما المرة الواحدة من الفعل فهي على "فعلة"، نحو ضربة، وقومة(٥) وذكر

(١) سورة الحاقة: آية: ١٣–١٤.

(٢) روح المعاني: ١٢٤/٢٩.

(٣) الشافية في علم التصريف لابن الحاجب: ٧/١ تحقيق: حسن أحمد العثمان، ط: المكتبة المكية – مكة – الأولى ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

(٤) شرح شافية ابن الحاجب: لابن شرف شاه:٣٠٩/١تحقيق:عبد المقصود محمد عبد المقصود، ط: مكتبة الثقافة الدينية، الأولى: ١٤٢٥هـ–٢٠٠٤م.

(٥) الأصول في النحو: لابن السراج ١١٠/٣، تحقيق: عبد الحصين الفتلي، ط: مؤسسة الرسالة، الثالثة: ١٩٨٨م.

الشيخ خالد الأزهري انه "يدل على المرة من مصدر الفعل الثلاثي "المتصرف التام" بـ "فعلة" بالفتح في الفاء كما فعلها، كـ: جلس جلسة، ولبس لبسة... إلا إذا كان بناء المصدر العام– أي المطلق الصادق على القليل والكثير عليها، أي على "فعلة" بالتاء، فيدل على المرة منه، أي من المصدر العام المبني على "فعلة" بالوصف بالوحدة وشبهها، كـ: رحم رحمة واحدة، أو مفردة[١]".

وكلمة ﴿نَفْخَةٌ﴾ في الآية الكريمة من الألفاظ الدالة على حدوث الفعل مرة واحدة لكونها بنيت على الثلاثي المتصرف التام، ولم يكن مصدرها العام المطلق ما ختم بالتاء، فيقال: نفخ نفخاً، ومثله "دَكًّا دَكًّا" ومنه قوله تعالى "كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا[٢]" وضرب ضربا، ... وهكذا، ومن ثم ليس هناك حاجة بأن توصف بالوحدة أو شبيهها للدلالة على الوحدة والأفراد لكون ذلك واقع في ذاتها، ولم يكن مصدرها العام –المطلق– على فعلة بالتاء في آخره وقد ذكر –سابقاً– أن الجمع بين العدد والمعدود يكون فيما وراء الإفراد والتثنية لبيان ما أبهم من عدد لأن المعدود لا يدل على عدده الخاص به مفهوماً أو منطوقاً أما ما يدل على الأفراد والتثنية فلا حاجة معها على ذكر العدد، وإن ذكر صريحا بعدها، يكون لغرض بلاغي رمي إليه المتكلم من كلامه. ومن ثم فإن ذكر قوله ﴿وَاحِدَةٌ﴾ بعد ما دل على الأفراد والوحدة بالمفهوم في قوله "نفحة" دون مقتضى لفظي لذكرها جاءت تأكيدا للمعنى، وتقريه في النفوس، وترسيخه في الأذهان. قال الطاهر بن عاشور: و﴿ نَفْخَةٌ ﴾ مصدرها "نفخ" مقترن بهاء دالة على المرة، أي الوحدة[٣]"وقال الشوكاني: "قرأ الجمهور: ﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، بالرفع فيهما على أن نفخة مرتفعة بالنيابة و "واحدة" تأكيد

(١) ينظر: شرح التصريح على التوضيح: للشيخ: خالد الأزهري: ٣٧/٢ ط: دار الكتب العلمية –بيروت – لبنان، الأولى: ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

(٢) سورة الفجر: آية ٢١.

(٣) التحرير والتنوير: ١٢٤/٢٩.

لها، وحسن تذكير الفعل لوقوع الفصل[١]"– أي الفصل بين الفعل ومصدره بالجار والمجرور "في الصور"، فوصف ﴿ نَفْخَةٌ﴾ بـ ﴿وَاحِدَةٌ ﴾ تأكيدا لمعنى الأفراد والوحدة، فتكون الإفادة بالمفهوم أولاً، وبالمنطوق ثانياً، وعلمان خير من علم واحد". والتنصيص على العدد بعد الوقوف عليه مفهوماً "للتنبيه على التعجب من تأثير جميع الأجساد البشرية بنفخة واحدة، دون تكرير تعجيب عن تعظيم قدرة الله، ونفوذ أمره، لأن سياق الكلام من مبدأ السورة تهويل يوم القيامة فتعداد أهواله مقصود، ولأجل القصد إليه –هنا– لم يذكر وصف واحدة في قوله تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ "[٢]" فحصل في ذكر﴿ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾تأكيد معنى النفخ، وتأكيد معنى الوحدة[٣]"

يقوم الإمام عبد القاهر: "وأن من الصفة صفة لا يكون فيها تخصيص ولا توضيح، ولكن يؤتي بها مؤكدة، كقولهم: "أمس الداير" وكقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ [٤]" وليس المراد بقوله: ﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أنها غير متبعة بثانية لورود في أي الذكر الحكيم، فقد نصت آيات أخرى في موضع آخر على أنهما نفختان، الأولى: للفناء، والثانية: تعقيبها بعد ذلك يمده وتسمى نفخة البعث والنشر، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾[٥]" وإنما المراد بالوصف– هنا– هو التأكيد على شدة النفخة وقوتها حتى إنها لا تحتاج إلى أخرى تساعدها في إفناء من في السماوات ومن في

(١) فتح القدير: ٥/٤٠٠.
(٢) سورة الروم: آية ٢٥.
(٣) التحرير والتنوير: ٢٩/١٢٥.
(٤) دلائل الإعجاز: ١٣١.
(٥) سورة الزمر: آية ٦٨.

الأرض إلا من شاء الله، كما أن الوصف كناية عن السرعة، ووقوع الواقعة، فكأنه ليس بين النفخة وقيام الساعة زمان يوجب فيه تكرار النفخ.

وإنما حسن التأكيد هنا– لكون الآيات سيقت في ثنايا سورة هائلة رهيبة... فهي منذ افتتاحها إلى ختامها تقرع الحس، وتطالعه بالهول القاصم والحد الصارم، والمشهد تلو المشهد، كله إيقاع ملح على الحس، بالهول وبالإجلال آنا، وبالعذاب آنا، وبالحركة القوية في كل آن(١).

والآيات تبرز مشهد القيامة المروع، وفي نهاية الكون الرهيبة، وفي جلال التجلي وهو أروع وأهول(٢). ومن بين هذه المشاهد القاضية، والأهوال القاصمة، موقف النفخ في الصور، وما فيه من قوة أخاذة، وسرعة فائقة، وإرادة نافذة، ونفخة قاصية قاصمة. ومثل هذا الموقف يحتاج الأسلوب معه إلى قوة في العرض، وتأكيد للمعنى طلبا لتقريره في الأذهان وترسيخه في النفوس، ومن ثم تناسب الإتيان بالوصف الدال على الوحدة والأفراد منطوقاً بعد ذكر ما يدل عليه مفهوماً، وهذه من آيات بلاغة القرآن الكريم، وصور من إعجازه الحكيم .

فقد تأثر النبي –ﷺ– بهذا الأسلوب في الحديث عن مواقف القيامة وبيان أهوالها تأثيرا واضحا بحديث القرآن الكريم عن ذلك لفظا ومعنى، ومن ذلك ما ورد وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: لَأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا لاَ يُحَدِّثُكُمْ أَحَدٌ بَعْدِي، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –ﷺ– يَقُولُ: "مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يَقِلَّ العِلْمُ، وَيَظْهَرَ الجَهْلُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا، وَتَكْثُرَ النِّسَاءُ، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ، حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً القَيِّمُ الوَاحِدُ "(٣).

وما ورد عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ –ﷺ– قَالَ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَطُوفُ الرَّجُلُ فِيهِ، بِالصَّدَقَةِ مِنَ الذَّهَبِ، ثُمَّ لاَ يَجِدُ أَحَدًا يَأْخُذُهَا مِنْهُ، وَيُرَى

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٦/٣٦٧٤.

(٢) السابق نفسه.

(٣) صحيح البخاري – كتاب العلم – باب رفع العلم وظهور الجهل رقم (٨١).

الرَّجُلُ الوَاحِدُ يَتْبَعُهُ أَرْبَعُونَ امْرَأَةً يَلُذْنَ بِهِ، مِنْ قِلَّةِ الرِّجَالِ وَكَثْرَةِ النِّسَاءِ»[(١)] وما جاء في حديث الشفاعة " إِنَّ اللَّهَ يَجْمَعُ يَوْمَ القِيَامَةِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيُنْفِذُهُمُ البَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ مِنْهُمْ ...إلخ"[(٢)].

تلك جملة من أحاديث النبي –ﷺ–، جاءت متأثرة بأسلوب القرآن الكريم لفظا ومعنى، حيث ذكر فيها العدد مع ذكر مفهومه من معدوده في مقام يحتاج الكلام معه إلى مزيد تكرير للمعنى في نفوس المخاطبين تأكيدا وتقريرا.

ومن تأثر البيان النبوي بالأسلوب القرآني ما جاء لدفع التصحيف والتحريف في الألفاظ المتشابهة خطا، أو التقييد بالعدد بعد ذكره في صورة أخرى خشية النسيان ما جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»[(٣)] فقوله «مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا»، وهو بدل من قوله: «تِسْعَةً وَتِسْعِين» وهي جملة لا تحمل معنا جديدا، وإنما جاءت احتراسا عن الزيادة والنقصان"، وكان الاحتمال في رسم الخط واقعا باشتباه تسعة وتسعين في زلة الكاتب وهفوة القلم بسبعة وتسعين أو تسعة وسبعين فينشأ الاختلاف في المسموع من المسطور أكده حسما للمادة وإرشادا للاحتياط "[(٤)].

وقد تأثر النبي – ﷺ – في هذا الحديث بالأسلوب القرآني المعجز، في قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ

(١) صحيح البخاري – كتاب النكاح – باب يقل الرجال ويكثر النساء رقم (٥٢٣١).
(٢) صحيح البخاري – كتاب أحاديث الأنبياء – باب منه – رقم (٣٣٦١).
(٣) صحيح البخاري: كتاب التوحيد: بَابٌ: إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ اسْمٍ إِلَّا وَاحِدًا رقم (٧٣٩٢). وصحيح مسلم كِتَابُ العلم بَابٌ فِي أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَفَضْلِ مَنْ أَحْصَاهَا رقم (٦).
(٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير – زين الدين محمد بن علي المناوي القاهري: ٢ /٤٧٨ – الناشر: المكتبة التجارية الكبرى – مصر – الأولى، ١٣٥٦.

أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1]. والعدد ﴿عَشَرَةٌ﴾ في قوله تعالى:﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ لم يكن المعول من ذكره فهم أن المقصود هذا العدد، وبيان قيد أفراد جنسه في معدوده لا يتعداه إلى غيره، فهو ليس بجديد، ومعلوم من حاصل جمع العددين معا في قوله تعالى: ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾، قال الرازي: "وَالْفَائِدَةُ فِيهِ أي التوكيد في الآية ـ أَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْعِبَارَاتِ الْكَثِيرَةِ وَيُعْرَفُ بِالصِّفَاتِ الْكَثِيرَةِ، أَبْعَدُ عَنِ السَّهْوِ وَالنِّسْيَانِ مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْعِبَارَةِ الواحدة، فالتعبير بالعبارات الْكَثِيرَةِ يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ فِي نَفْسِهِ مُشْتَمِلًا عَلَى مَصَالِحَ كَثِيرَةٍ وَلَا يَجُوزُ الْإِخْلَالُ بِهَا، أَمَّا مَا عُبِّرَ عَنْهُ بِعِبَارَةٍ وَاحِدَةٍ فَإِنَّهُ لَا يُعْلَمُ مِنْهُ كَوْنُهُ مَصْلَحَةً مُهِمَّةً لَا يَجُوزُ الْإِخْلَالُ بِهَا، وَإِذَا كَانَ التَّوْكِيدُ مُشْتَمِلًا عَلَى هَذِهِ الْحِكْمَةِ كَانَ ذِكْرُهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ دَلَالَةً عَلَى أَنَّ رِعَايَةَ الْعَدَدِ فِي هَذَا الصَّوْمِ مِنَ الْمُهِمَّاتِ الَّتِي لَا يَجُوزُ إِهْمَالُهَا أَلْبَتَّةَ"[2].

وفي ذكر العدد " عَشَرَة " دفع توهم بأن المقصود بـ "الواو" في الآية بمعنى "أو" التي للتخيير فيتوهم بأن الأمر بالصيام الثلاثة التي في الحج، أو السبعة التي بعد الرجوع إلى أهله وبلده، وأن صيام أحد الخيارين يجزئ عن صيام الأخر، وعليه فذكر العدد "عَشَرَةٌ" دفعا لهذا التوهم وإزالته من الوقوع في الذهن، كما أن في ذكر العدد "عَشَرَةٌ " دفعا لتوهم التداخل، فيظن أن الثلاثة داخلة في السبعة، متممة لها غير منفصلة عنها، فقوله: ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه أن يكون الواجب بعد الرجوع أن يكمل سبعة أيام، على أنه يحسب من هذه السبعة تلك الثلاثة التي في الحج المتقدمة، فيكون الباقي عليه بعد العودة أربعة أيام فقط، كما يحتمل . أيضا ـ من هذا الكلام أن يكون الواجب بعد الرجوع سبعة سوى تلك الثلاثة

(١) سورة البقرة آية: ١٩٦.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: ٣/ ١٧٠.

المتقدمة، فهذا الكلام يحتمل هذين الوجهين، فإذا قال بعده ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ زال هذا الإشكال، ودفع التوهم والتداخل الذي يمكن وقوعه في الذهن، وبين أن الواجب بعد الرجوع صيام سبعة سوى الثلاثة المتقدمة(١)، ومن ثم فإن ذكر العدد "عَشَرَةٌ" أزال هذا التوهم، وبعد عن التداخل، وأكد على أن صيام كلا العددين مقصودان بالحكم كل على حدة، كما أن في هذا التتميم البعد بالكلام عن مواطن التصحيف الخطي والسمعي في اللفظ، لأن لفظة "سَبْعَةٍ" تشبه في الخط لفظة "تسعة"، فيشتبه الأمر على المخاطبين، فناسب الإتيان بالعدد لدفع هذا التصحيف المحتمل الوقوع، كما أن في ذكر العدد ﴿عَشَرَةٌ﴾ إزالة التوهم . أيضا . بأن المقصود من العدد "سَبْعَةٍ" في قوله تعالى: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ المبالغة في العدد لا المفهوم العددي الظاهر في الكلام، لأن العرب تطلق السبع والسبعين والسبعمائة ولا تقصد الأعداد بأعينها، وإنما لقصد المبالغة أو التكثير، وذكر العدد "عَشَرَةٌ" أزال هذا التوهم، وبعد بالكلام عن التأويل غير المراد في هذا المقام.

وعلى ذلك فإن فالحكمة في قولهﷺ: "مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا" بعد قوله ﷺ: "إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا" أن يتقرر ذلك في نفس السامع جمعا بين جهتي الإجمال والتفصيل، أو دفعا للتصحيف الخطي والسمعي(٢)، والأحكام التشريعية ينبغي أن تصل إلى المكلفين واضحة جلية لا لبس فيها ولا غموض، وتلك صورة من صور تأثر البيان النبوي بأسلوب القرآن الكريم المعجز.

كما كان تأثر النبي – ﷺ – ببلاغة القرآن الكريم واضحا في الإتيان بهذا الأسلوب لغرض المبالغة في الوصف في أكثر من موضع، بسياقاته ومقاماته المتعددة فكان التعبير بالعدد "سبعة" ومشتقاته للدلالة على المبالغة في الوصف في أحاديث الصحيحين كثيرة ومنتشرة لاسيما في سياقات مشاهد

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: ٣/١٧١.
(٢) ينظر: فتح الباري: ١٢/ ٥٢١.

الآخرة وأهوال يوم القيامة مبالغة في الوصف ثوابا وعقابا، ومن ذلك ما روي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ – ﷺ –يَقُولُ: «مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، بَعَّدَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا»(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ – ﷺ –، إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ – ﷺ –: «تَدْرُونَ مَا هَذَا؟» قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا».(٢)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ –، قَالَ: «نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ»، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً قَالَ: «فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا»(٣).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ –قَالَ: «يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا، وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ»(٤)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ – ﷺ – أَنَّهُ قَالَ: «فِي أَوَّلِ ضَرْبَةٍ سَبْعِينَ حَسَنَةً»(٥)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – ﷺ –، قَالَ: «إِنَّ الْعَرَقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيَذْهَبُ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ بَاعًا، وَإِنَّهُ لَيَبْلُغُ إِلَى أَفْوَاهِ النَّاسِ، أَوْ إِلَى آذَانِهِمْ»(٦)

---

(١) صحيح البخاري – كتاب الجهاد والسير – باب الصيام في سبيل الله حديث رقم (٢٨٤٠)

(٢) صحيح مسلم – كتاب صفة القيامة والجنة والنار – باب بَابٌ فِي شِدَّةِ حَرِّ نَارِ جَهَنَّمَ وَبُعْدِ قَعْرِهَا وَمَا تَأْخُذُ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ حديث رقم (٢٨٤٤).

(٣) صحيح البخاري – كتاب بدء الخلق – باب صفة النار وأنها مخلوقة رقم (٣٢٦٥).

(٤) صحيح البخاري – الرقاق – ابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ} حديث رقم (٦٥٣٢).

(٥) صحيح مسلم – كتاب السلام – باب استحباب قتل الوزغ حديث رقم (١٤٧).

(٦) صحيح مسلم – كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها – باب بَابٌ فِي صِفَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَعَانَنَا اللهُ عَلَى أَهْوَالِهَا حديث رقم (٢٨٦٣).

فتلك جملة من أحاديث النبي – ﷺ – تأثر فيها بسياقات القرآن الكريم من جانبي اللفظ والمعنى، فقد سبق أن ذكرت بأن في اختيار العدد "سبع" ومشتقاته في الأمثلة السابقة، للدلالة على المبالغة في الكثرة أو المبالغة في الوصف، والقرآن الكريم بذلك جار على أساليب العرب في كلامهم، ومعرفة ما كانت تفقهه من لغتها وتعنيه، فالعرب تطلق السبع والسبعين، والسبعمائة، ولا تريد مفهوم العدد وظاهره وإنما لقصد المبالغة في الوصف، أو الكثرة في العدد، أو بلوغ النهاية في الأمر، قال الزمخشري: "والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير[١]، والعرب تضع هذا العدد ومشتقاته موضع التضعيف والتكثير، وليس من حصر العدد في أفراد معدودة وتخصيصه به، فهو عندهم يعني الكمال وبلوغ الغاية.

فهذا العدد "سبع" ومشتقاته له عندهم شأن رفيع، تفطن له أهل اللسان، وعرفوا سر استعمالهم له في كثير من إطلاقاته على مسمياته، فنظروا إليه فوجدوا أنهم لا يسمون به إلا ما اكتمل عندهم معناه، فالسبع عندهم من الحيوان ما تكاملت فيه القوى الحيوانية، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: هُوَ سُبَاعِيُّ الْبَدَنِ، إِذَا كَانَ تَامَّ الْبَدَنِ مكتملها، السُبَاعِيُّ من الجِمال: الْعَظِيم الطَّوِيل، ويقولون لأفعلن به سبعة للمبالغة فيما سيحل بهٖ ومن ثم استخدمه العرب في كلامهم حين يريدون المبالغة في الوصف، أو الكثرة في العدد، أو بلوغ النهاية في الأمر، فيقولون نصحتك سبعين مرة، للمبالغة في تكرار فعل النصح، ويقولون: لأفعلن به سبعة، للمبالغة فيما سيقع عليه جزاء هذا الوعيد.[٢]

(١) ينظر: تفسير الكشاف: ٢/ ٢٩٩.

(٢) ينظر: تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري الهروي: مادة (باب العين مع السين مع الباء) تحقيق: محمد عوض مرعبط: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م، ومعجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس تحقق: عبد السلام محمد هارون ط: دار الفكر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م ولسان العرب: مادة: سبع.

وذلك مثل قوله تعالى في طائفة من المنافقين: – ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1]، فالتعبير بالعدد في قوله تعالى ﴿ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾، لم يكن قيدا للفعل أو مخصصاً لأفراد معدوده، وإنما عبر به لغرض بلاغي رمي إليه وهو التأكيد على إثبات ضلال هذه الطائفة من المنافقين وسوء عاقبتهم، وإغلاق باب الرحمة عليهم جزاء ما فعلوه بالنبي . ﷺ . وصحابته الكرام، فليس المقصود بالعدد– هنا– حصره في أفراده، وإنما المبالغة في الوصول بالاستغفار إلى حد لم يصل إليه أحد، فحالهم بالاستغفار وعدمه سواء، فالأمر بالاستغفار أو النهي عنه لتلك الطائفة من باب التيئيس من وقوع المغفرة لا للتخيير. قال القرطبي: قالت طائفة في تأويل ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ هو من باب اليأس لا التخيير بدليل قوله تعالى: ﴿ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾،وذكر السبعين وفاق جرى، أو هو عاداتهم– أي العرب– في العبارة عن الكثرة. [2]، وعلى هذا يكون المعنى: إن استغفرت لهم فلن ينفعهم ذلك الاستغفار ولو بالغت في الإكثار منه، فالفعل والترك سواء في عدم الإفادة، وجلب المنفعة.

ومثله في سياقات يوم القيامة وقد تأثر به النبي . ﷺ . في المبالغة في ذكر مشاهد القيامة وبيان أهوالها قوله تعالى في بيان حال أصحاب الشمال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ

(١) سورة التوبة: آية: ٨٠.

(٢) ينظر: تفسير القرطبي المسمى بالجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٣١٤٥، ط دار الغد العربي، الثانية.

كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ *﴾(١).

فالتعبير بالعدد في بيان جزاء هذه الطائفة في قوله: ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾، يمكن أن يراد به ظاهر العدد المعروف، ويكون مقيداً لأفراد معدودة، ومبيناً على سبيل التحديد مقدار هذه السلسلة من الطول. قال الحسن: الله أعلم بأي ذراع هو(٢).

جاء في تفسير الفخر الرازي: وقيل إنه ليس الغرض في التقدير بهذا المقدار، بل الوصف بالطول كما قال "إن تستغفر لهم سبعين مرة" يريد مرات كثيرة(٣)، وهذا ما يلائم المعنى، ويقتضيه المقام، لأنها لما لم تقيد بمقياس معين و بالغ في وصفها بالطول، وبدت للمخاطب كالمحس المشاهد والتأمت عنده صورتها المفزعة، ومن ثم كان التخويف فيها أفظع، والإنذار منها أوقع، والتهويل بها أشد، وهذا يتناسب مع هول الموقف، وعظمة المقام، وشدة وقع الألفاظ التي عبر بها عن هذه المعاني بأفعال أمر أخاذة في قوله تعالى:﴿خُذُوهُ .. فَغُلُّوهُ .. ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ .. ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ فالتعبير عن سوء العاقبة جاء في صورة أفعال أمر على سبيل الطلب في أسلوب شديد أخّاذ يدل على عظمة وجلال الآمر، وحقارة وسوء المنقلب لمن يُفْعَل به مثل هذه المأمورات(٤).

---

(١) سورة الحاقة: آية: ٢٥ – ٣٧.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٥/ ١١٠.

(٣) السابق نفسه.

(٤) ينظر من بلاغة العدد غير المقيّد لمعدوده في القرآن الكريم "دراسة تحليلية" – أحمد محمود الجبالي صـ بحث منشور في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية – بنين القاهرة عدد رقم ( ).

ومما هو داخل في هذا الباب قوله تعالى في بيان سعة علم الله المطلق وحكمته البالغة: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١).

المعنى: لو ثبت كون ما في الأرض من شجر أقلاماً، والبحر ممدود بأبحر عظيمة وعديدة، وكتبت بتلك الأقلام، وبذلك المداد كلمات الله تعالى، ما نفذت كلمات الله لعدم تناهيها، وتنفد الأقلام والبحار التي بمثابة المداد لتناهيها.

والمراد بكلمات الله في الآية: علم الله المطلق الذي لا يحد بحد، وحكمته البالغة التي لا يقف على حقيقتها واصف، وهذا المعنى هو ما يقتضيه سبب نزول هذه الآية، قال المفسرون: سألت اليهود رسول الله -ﷺ- -عن الروح- فأنزل الله بمكة ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٢) فلما هاجر رسول الله . ﷺ . إلى المدينة أتاه أحبار اليهود، فقالوا: يا محمد بلغنا عنك أنك تقول: " وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً "،أفتعنينا أم قومك" فقال . ﷺ . "كلا قد عنيت"، فقالوا: ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء، فقال . ﷺ . هي في علم الله سبحانه قليل، ولقد أتاكم الله تعالى ما إن عملتهم به انتفعتم به، فقالوا: يا محمد، كيف تزعم هذا؟ وأنت تقول: ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (٣) فكيف يجتمع، هذا علم قليل، وخير كثير فأنزل الله تعالى الآية.(٤)

فسبب النزول يوضح أن المراد بالعدد﴿ سَبْعَةُ﴾في قوله تعالى﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ المبالغة في إثبات الكثرة غير المتناهية للبحور، واتساعها وجعلها – مع كثرتها– مدادا لتلك الأقلام لكتابة علم الله وحكمته، فتنتهي تلك

(١) سورة: لقمان: آية: ٢٧.
(٢) سورة: الإسراء: آية: ٨٥.
(٣) سورة: البقرة: آية: ٢٦٩.
(٤) ينظر: أسباب النزول لأبي الحسن النيسابوري: ٣٥٨، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤١١هـ.

البحور الكثيرة والعظيمة ومثلها ولا ينتهي كلام الله وحكمته، وليس المقصود منه حصر البحار في المفهوم العددي، الدال على اختصاص الأبحر بهذا العدد، وحصر أفراده فيه، وذلك لأن الحكم فيما بعد العدد غير متغير فيما قبله ولا أمثال أمثاله، وهو أن كلمات الله تعالى لم تنفذ، ولن تنفذ لكون علم الله وحكمته غير متناه، قال الألوسي(١): والمراد بالسبعة: الكثرة بحيث تشمل المائة والألف مثلاً لا خصوص العدد المعروف، كما في قوله ﷺ: {الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ}(٢)، وإنما جاء التمثيل من باب ضرب الأمثال قصداً لتقريب المعاني التي لا يطاق الوصول إليها إلى الإفهام حتى تستقر في القلوب وترسخ في الأذهان، وإلا فالأشجار وإن تضاعفت على ما ذكر – والبحار– لو امتدت أضعاف مضاعفة –، فإنه يتصور نفادها، وانقضاؤها، لكونها مخلوقة، أما علم الله وحكمته فلا يتصور منه النفاد، لأنه لما علم يقيناً بأن الله – تعالى – باق فإن صفاته المتمثلة في علمه وحكمته باقية ببقاء ذاته تعالى(٣).

فتلك صور من تأثر البيان النبوي بأسلوب القرآن الكريم المعجز في التعبير بالعدد الكنائي، مبالغة في تشكيل الصورة الوصفية في وجدان المخاطبين تمهيدا لمعرفة ألفاظها، والوقوف على حد معانيها ترغيبا واستحسانا، أو ترهيبا وإنذارا، وإنما كان هذا التأثر النبوي بالقرآن الكريم لما بينهما من ترابط وتعانق متلازمين، فالسنة موافقة لما في القرآن الكريم مؤكدة لمعانيه، ومفصلة لما أجمل في مبانيه، ومقيدة لمطلقه، ومحددة ومخصصة لعمومه، ومن ثم ناسب أن يقتفي البيان النبوي أثر القرآن الكريم في سياقاته ومقاماته لفظا، كما حمل على عاتقه تبليغ المعنى.

---

(١) روح لمعاني: ١٠ / ١٤٨.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأطعمة: باب المؤمن يأكل في معي واحد.

(٣) ينظر: الأمثال في القرآن الكريم: دكتور: الشريف منصور بن عون العبدلي، ط: عالم المعرفة، الأولى ١٤٠٦ هـ. ١٩٨٥م.

ثانيا: تأثير البلاغة النبوية في أسلوب الصحابة ورواة الحديث

أما تأثير البيان النبوي في الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين فقد كان ظاهرا جليا لاسيما حين يحتاج السياق إلى مزيد من التأكيد والتقرير للمعنى لاسيما في الأحكام التشريعية التي يُتَعَبَّدُ بها، ولا يكون القائل بها النبي ﷺ، وإنما نقلها عنه غيره، وصفا لفعل، أو تقريرا لحاله، ومن ثم نجد أكثر ما وقع في هذا الأسلوب التعبيري ممن كانوا أكثر اتصال بالنبيﷺ كزوجاته ﷺ – رضي الله عنهن أجمعين – وذوي قرابته كعبد الله بن عباس، وعمر بن أبي سلمة ربيب بيت النبوة، أو أكثر الصحابة حرصا على تلقي العلم، ورواية للحديث كأبي هريرة، وأنس بن مالك، وهذا التواصل الرحمي بالنسب أو العلم جعل التأثير واضحا على أقوالهم قبل أفعالهم، ومن ثم فكان كلامهم كأنه منبثق من فِيّ النبي ﷺ وليس من أفعاله ﷺ المنقولة إلينا عن طريق أقوالهم، وتلك درجة عالية من التأثير والتأثر.

ومن صور التأثر الواضحة من زوجات النبي – ﷺ – ما ورد عن أم المؤمنين عائشة زوج النبي ﷺ قالت: «كُنْتُ أَغْتَسِلُ أَنَا وَالنَّبِيُّ – ﷺ –مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ، مِنْ قَدَحٍ يُقَالُ لَهُ الفَرَقُ»، وفي رواية لها أيضا: عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «كُنْتُ أَغْتَسِلُ أَنَا وَالنَّبِيُّ ﷺ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ، تَخْتَلِفُ أَيْدِينَا فِيهِ»(١).

وعنها «مَا كَانَ لِإِحْدَانَا إِلَّا ثَوْبٌ وَاحِدٌ تَحِيضُ فِيهِ، فَإِذَا أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنْ دَمٍ قَالَتْ بِرِيقِهَا، فَقَصَعَتْهُ بِظُفْرِهَا، وعنها واصفة حال النَّبِيّ ﷺ، من التزهد في الدنيا قَالَتْ: «لَقَدْ مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَمَا شَبِعَ مِنْ خُبْزٍ، وَزَيْتٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ»(٢).

(١) صحيح البخاري: كتاب الغسل: باب غسل الرجل مع امرأته .

(٢) صحيح مسلم: كتاب الزهد والرقائق: باب منه – حديث رقم (٢٩٤٧).

أما تأثر ذوي القربى، أو من كان له صلة ببيت النبوة فيتمثل ذلك في حديث عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما [١]– «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَمَيْمُونَةَ كَانَا يَغْتَسِلاَنِ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ»[٢]، وحديث عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ،[٣] أَنَّهُ «رَأَى النَّبِيَّ ﷺ يُصَلِّي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ قَدْ أَلْقَى طَرَفَيْهِ عَلَى عَاتِقَيْهِ»[٤].

أما تأثر الصحابة بذلك فهو كثير منتشر في أحاديث الصحيحين ناهيك عن كتب الأحاديث الأخرى، في الصحاح أم السنن أم المسانيد، وتلك دلالة واضحة جلية على أن الصحابة الكرام كانوا يعيشون بروح النبيﷺ، فكانوا حريصين على الاقتداء به في أقواله قبل أفعاله، ومن ذلك ما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ سَائِلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الصَّلاَةِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَلِكُلِّكُمْ ثَوْبَانِ»[٥]. وعن أَنَسٍ يَقُولُ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَالمَرْأَةُ مِنْ نِسَائِهِ يَغْتَسِلاَنِ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ»[٦].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ [٧]، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَقُولُ: «أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ»، فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى

(١) عَبْدُ اللهِ بنُ عَبَّاسِ حَبْرُ الأُمَّةِ، وَفَقِيْهُ العَصْرِ، وَإِمَامُ التَّفْسِيْرِ، أَبُو العَبَّاسِ عَبْدُ اللهِ، ابْنُ عَمِّ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ الهَاشِمِيُّ، المَكِّيُّ، الأَمِيْرُ –رضي الله عنه–ولد قَبْلَ عَامِ الهِجْرَةِ بِثَلاَثِ سِنِيْنَ. [سير أعلام النبلاء: ٣ / ٣٣١، وما بعدها .]

(٢) صحيح البخاري – كتاب الغسل – باب الغسل بالصاع ونحوه – حديث رقم (٢٥٣).

(٣) عُمَر بْن أَبِي سَلَمة بْن عَبْد الأسد الْقُرَشِيّ المخزومي ربيب رَسُول الله ﷺ، ولد فِي السنة الثانية من الهجرة، توفي سنة ثلاث وثمانين.[أسد الغابة: ٤ / ١٦٩] .

(٤) صحيح البخاري – كتاب الصلاة – باب الصلاة في ثوب واحد ملتحفا– رقم (٣٥٥).

(٥) صحيح البخاري – كتاب الصلاة – باب الصلاة في ثوب واحد ملتحفا – رقم (٣٥٨).

(٦) صحيح البخاري – كتاب الغسل – بَابٌ: هَلْ يُدْخِلُ الجُنُبُ يَدَهُ فِي الإِنَاءِ قَبْلَ أَنْ يَغْسِلَهَا، إِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَى يَدِهِ قَذَرٌ غَيْرُ الجَنَابَةِ – حديث رقم (٢٦٤).

(٧) جابر بْن عَبْد اللَّهِ بْن عمرو بْن حرام شهد العقبة الثانية مع أبيه وهو صبي، وقيل شهد بدرا وهو آخر من مات بالمدينة ممن شهد العقبة.[أسد الغابة: ١ / ٤٩٢].

أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ، وَقَالَ: «أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ»، وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ فِي دِمَائِهِمْ، وَلَمْ يُغَسَّلُوا، وَلَمْ يُصَلَّ عَلَيْهِمْ.(١)

وعن جَابِرِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺفِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَجِئْتُ لَيْلَةً لِبَعْضِ أَمْرِي، فَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، وَعَلَيَّ ثَوْبٌ وَاحِدٌ، فَاشْتَمَلْتُ بِهِ وَصَلَّيْتُ إِلَى جَانِبِهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: «مَا السُّرَى يَا جَابِرُ» فَأَخْبَرْتُهُ بِحَاجَتِي، فَلَمَّا فَرَغْتُ قَالَ: «مَا هَذَا الِاشْتِمَالُ الَّذِي رَأَيْتُ»، قُلْتُ: كَانَ ثَوْبٌ – يَعْنِي ضَاقَ – قَالَ: «فَإِنْ كَانَ وَاسِعًا فَالْتَحِفْ بِهِ، وَإِنْ كَانَ ضَيِّقًا فَاتَّزِرْ بِهِ»(٢)– وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺعَنِ اشْتِمَالِ الصَّمَّاءِ، وَأَنْ يَحْتَبِيَ الرَّجُلُ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، لَيْسَ عَلَى فَرْجِهِ مِنْهُ شَيْءٌ»(٣) – وعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ،(٤) عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: «صَلَّى الصَّلَوَاتِ يَوْمَ الْفَتْحِ بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ، وَمَسَحَ عَلَى خُفَّيْهِ»(٥).

إن عشرات من الأحاديث في الصحيحين يظهر فيها هذا الأسلوب التعبيري على ألسنة الصحابة الكرام، متأثرين فيه ببلاغة البيان النبوي الشريف؛ للكشف عن مراد الله من الخلق، لاسيما في الأحكام التشريعية التي يحتاج الكلام معها إلى تأكيد وتقرير، والتعبير بالعدد في تلك الأحاديث الموقوفة على الصحابة الكرام جاءت كلها في صورة تأكيد المعدود المفرد بالعدد، مع كونه مفهوما من لفظ المعدود بدأ، ولكن لما كانت حاجة السياقات والمقامات تتطلب مزيدا من التأكيد والتقرير للكشف عن حكم تشريعي ناسب اختيار هذا الأسلوب التعبيري للوصول إلى درجة الوضوح والبيان تأكيدا وتقريرا، مثلهم وقدوتهم في ذلك

(١) صحيح البخاري – كتاب الجنائز – بَابٌ: الصلاة على الشهيد رقم (١٣٤٣).
(٢) صحيح البخاري – كتاب الصلاة– بَابٌ: إذا كان الثوب ضيقا رقم (٣٦١).
(٣) صحيح البخاري – كتاب الصلاة– بَابٌ: بَابُ الِاحْتِبَاءِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ (٣٦٧).
(٤) سُلَيْمَانُ بنُ بُرَيْدَةَ الأَسْلَمِيُّ رَوَى عَنْ: أَبِيْهِ، وَعَائِشَةَ، وَعِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ. مَاتَ سَنَةَ خَمْسٍ وَمائَةٍ، وَلَهُ تِسْعُوْنَ عَاماً.[سير أعلام النبلاء: ٥ /٥٢،٥٣].
(٥) صحيح مسلم – كتاب الطهارة – بَابُ جَوَازِ الصَّلَوَاتِ كُلِّهَا بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ (٨٦) .

البلاغة النبوية العالية التي اتخذت من هذا الأسلوب التعبيري مطية للوصول بها إلى إظهار أحكام تشريعية، في غاية من التمكين والأهمية في أبواب الطهارة والعبادات الفعلية المتنوعة .

ثالثا: تأثير البلاغة النبوية في أسلوب رواة الحديث في تبويب الأحاديث

لم يقف حد التأثير عند الصحابة الكرام – رضوان الله عنهم أجمعين – بل امتد الأمر إلى الأئمة الذين اعتنوا بجمع أحاديث النبي ﷺ وتصنيفها كتبا وأبوابا، ووضعوا أبواب كتبهم بما يتناسب وما يشتمله الباب من أحاديث، ولذا كان التأثر بألفاظ النبي ﷺ واضحا في عناوين الأبواب للكشف عما يحمله الباب من معان حديثية شريفة، وسأكتفي بذكر بعض ما ورد في الصحيحين من صور التأثر بالبلاغة النبوية الشريفة في التعبير بأسلوب العدد غير المقيد لمعدوده في عناوين الأبواب تأكيدا وتقريرا، أو مبالغة وتفخيما .

ففي صحيح البخاري جاءت أبواب حاملة أعداداً لم تكن مقيدة لمعدوده، وإنما هو للتأكيد والتقرير، أو مبالغة في الوصف، تناسبا مع ما جاء في أحاديث الباب حاملة هذا الأسلوب التعبيري البلاغي منها:

- بَابُ إِذَا جَامَعَ ثُمَّ عَادَ، وَمَنْ دَارَ عَلَى نِسَائِهِ فِي غُسْلٍ وَاحِدٍ.
- بَابُ مَنْ قَالَ: لِيُؤَذِّنْ فِي السَّفَرِ مُؤَذِّنٌ وَاحِد.
- بَابُ إِذَا لَمْ يُوجَدْ إِلَّا ثَوْبٌ وَاحِدٌ.
- بَابُ دَفْنِ الرَّجُلَيْنِ وَالثَّلاَثَةِ فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ.
- بَابُ مَنْ طَافَ عَلَى نِسَائِهِ فِي غُسْلٍ وَاحِدٍ.
- بَابٌ: المُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ.
- بَابُ الِاحْتِبَاءِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ.
- بَابُ تَرْجَمَةِ الحُكَّامِ، وَهَلْ يَجُوزُ تَرْجُمَانٌ وَاحِدٌ.
- بَابُ غَسْلِ الوَجْهِ بِاليَدَيْنِ مِنْ غَرْفَةٍ وَاحِدَةٍ.
- بَابُ مَنْ مَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ مِنْ غَرْفَةٍ وَاحِدَةٍ.
- بَابُ الغُسْلِ مَرَّةً وَاحِدَةً.

- بَابُ لاَ يَمْشِي فِي نَعْلٍ وَاحِدَةٍ.
- بَابٌ: يَدْخُلُ الجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ.

وكذا سار الإمام مسلم في صحيحه على هذه الصورة من التأثر بألفاظ الأحاديث وأساليبه البلاغية فجاءت أبوابه عنوانا لما تحمله أحاديثه، وكأن العدد الذي لا مفهوم لمنطوقه أصبح أم الباب وعليه تدور أحاديثه، وتحمل ألفاظها معاني التأكيد أو المبالغة في الوصف، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

- بَابُ جَوَازِ الصَّلَوَاتِ كُلِّهَا بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ.
- بَابُ الاَضْطِجَاعِ مَعَ الْحَائِضِ فِي لِحَافٍ وَاحِدٍ.
- بَابُ الْقَدْرِ الْمُسْتَحَبِّ مِنَ الْمَاءِ فِي غُسْلِ الْجَنَابَةِ، وَغُسْلِ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ، وَغُسْلِ أَحَدِهِمَا بِفَضْلِ الْآخَرِ.
- بَابُ الصَّلَاةِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ وَصِفَةِ لُبْسِهِ.
- بَابُ الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ.
- بَابُ اشْتِمَالِ الصَّمَّاءِ وَالِاحْتِبَاءِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ.

فتلك الشواهد الحديثية دالة على تأثر رواة الحديث وأصحاب التصانيف الحديثية كالإمامين البخاري ومسلم بهذا الأسلوب البلاغي المبدع، والذي جاء على لسان النبي محمد –ﷺ– مطابقا بذلك ما جاء من ألفاظ ومعان تحملها أحاديث تلك الأبواب، وكأن عنوان الباب إشارة واضحة خاطفة، في أسلوب موجز للدلالة على ما فهمه الراوي أو المصنف من ألفاظ الأحاديث، وما وراء تلك الألفاظ الظاهرة من معان أخرى جاءت على غير مفهومها الظاهر، تيسيرا للقارئ، وأخذا بيد المتعلم إلى مراد النبي ﷺ من الكلام .

الخاتمة

وبعد تلك الوقفات البلاغية في أسلوب من أساليب البيان النبوي والذي جاء على خلاف مقتضى الظاهر، أو جاء مراد (النبي ﷺ) بما هو أكثر من تلك المعاني التي تحملها الألفاظ ظاهرا، ومجيء العدد فيها بوظيفة غير التي وضع لها في اللغة، إما مبالغة في الوصف، وإما تأكيدا وتقريرا للمعنى في النفس، وقد خلص البحث إلى عدة نتائج منها:

أولا: اصطفاء النبي ﷺ الأساليب اصطفاء يحمل المخاطب على فهم المعنى حملا، واستخدام العدد الذي جاء على غير منطوقه في موضعه الذي لا يحسن أن يأتي غيرها، ويسد مسدها في الوصول بالمعنى إلى القلب أحسن صورة من اللفظ.

ثانيا: يمتاز أسلوب العدد في القرآن الكريم بكثرة أساليبه وتعدد صوره ما بين مقصود في ذاته مقيد لأفراده، وبين خروجه عن هذا الحد، والوصول به إلى أغراض بلاغية أخرى رمى إليها من الكلام وحسب مقتضيات المقام.

ثالثا: التعبير بأسلوب العدد غير المقيد لمعدوده يعد لونا من ألوان خروج الكلام على خلاف الظاهر؛ والعدول بالكلام عن طريقته الأصيلة التي وضع العدد له من حيث تقييد أفراد جنسه فيه، وذلك لما يحمله من معنى يخالف منطوقه مراد ما فهم منه إما مبالغة، وإما تأكيدا وتقريرا.

رابعا: أسلوب العدد غير المقيد لمعدودة صورة من صور الأسلوب الكنائي، فهو ضرب من الكلام لا يراد من اللفظ الظاهر معناه القريب لمفهوم العدد وإنما لازم معناه، ويعد اللفظ المذكور دليل عليه، وهذا ما جعل العلماء والمفسرون تختلف آراؤهم في تلك الأعداد بين كونها على أصل مرادها، أو أنها جاءت كناية عن الوصول للغاية في الوصف.

خامسا: مجيء هذا الأسلوب في البيان النبوي لأغراض بلاغية كثيرة يمكن جمعها في غرضين أصيلين، هما المبالغة، والتأكيد والتقرير، وكان لكل غرض سياقات معهودة، ومقامات تطلب هذا الأسلوب طلبا.

- فكانت سياقات غرض التأكيد والتقرير في الأمور التي تتعلق بالأحكام التشريعية التي تحتاج إلى مزيد من التأكيد على المعنى وطلب إقراره في النفس كأحكام الطهارة والصلاة والزكاة والصيام وأعمال الحج كما سبق بيانه في ثنايا المبحث الأول من البحث.
- وكان غرض المبالغة كثيرا ما يأتي في سياقات الحث على التحلي بالأخلاق الحسنة والفضائل الكريمة، والتخلي عن الرذائل والأخلاق الفاسدة، بذكر العدد على غير مفهومه مبالغة في الكثرة ثوابا وعقاب ترغيبا وترهيبا، كما في أحاديث المبحث الثاني من البحث.
- كما وقع غرض المبالغة في الحديث عن فتن آخر الزمان وأهوال يوم القيامة ومشاهد الآخرة، وما يتطلبه المقام من مبالغة في الوصف ووصف للجنة وبيان ما أعد لأهلها من نعيم دائم، ووصف النار وبيان ما أعد لأهلها من عذاب مقيم، كما هو واضح من خلال أحاديث المبحث الثالث من البحث.

سادسا: كان لهذا الأسلوب البلاغي في البيان النبوي حظه من التأثر بألفاظ القرآن الكريم ومعانيه، والتأثير في الصحابة والرواة والمصنفين.

فقد تأثر النبي ﷺ بأسلوب القرآن الكريم، والذي كثر فيه ورود أسلوب العدد الذي لا مفهوم له، أو ما يسمى بالعدد الكنائي، وكانت له مظانه وسياقاته، فأخذ النبي ﷺ من تلك المقامات والألفاظ ما يساعده على إبلاغ ما أُمِرَ به لفظا ومعنى، وإنما كان هذا التأثر النبوي بالقرآن الكريم لما بينهما من ترابط وتعانق متلازمين، فالسنة موافقة لما في القرآن الكريم مؤكدة لمعانيه، ومفصلة لما أجمل في مبانيه، ومقيدة لمطلقه، ومحددة ومخصصة لعمومه، ومن ثم ناسب أن يقتفي البيان النبوي أثر القرآن الكريم في سياقاته ومقاماته لفظا، كما حمل على عاتقه تبليغ المعنى .

– وقد تأثر بهذا الأسلوب البلاغي رواة الحديث النبوي الشريف فجاءت رواياتهم وكان كلامهم وكأنه يخرج من مشكاة النبوة المشرفة، وقد حملهم

على ذلك إرادة تقييد كل ما فعله النبي ﷺ، ونقله إلى الناس كافة دون زيادة أو نقصان، ومن ثم نجد أكثر ما وقع في هذا الأسلوب التعبيري ممن كانوا أكثر اتصال بالنبيﷺ كزوجاته ﷺ – رضي الله عنهن أجمعين – وذوي قرابته كعبد الله بن عباس، وعمر بن أبي سلمة ربيب بيت النبوة، أو أكثر الصحابة حرصا على تلقي العلم، ورواية للحديث كأبي هريرة، وأنس بن مالك، وهذا التواصل الرحمي بالنسب أو العلم جعل التأثير واضحا على أقوالهم قبل أفعالهم، ومن ثم كان كلامهم كأنه منبثق من فِيِّ النبي ﷺ وليس من أفعاله ﷺ المنقولة إلينا عن طريق أقوالهم، وتلك درجة عالية من التأثير والتأثر .

– كما ظهر تأثر مصنفي الكتب الحديثية التي اعتنت بجمع الحديث النبوي الشريف، لاسيما عند البخاري ومسلم في صحيح كل منهما، مما جعل أبواب الأحاديث مصبوغة بما جاء فيها من ألفاظ النبي ﷺ خاصة تلك المعاني المفهومة من الألفاظ دون الوقوف على مفهومها الظاهر، أو معناها القريب، وكأن عنوان الباب إشارة واضحة خاطفة، في أسلوب موجز للدلالة على ما فهمه الراوي أو المصنف من ألفاظ الأحاديث، وما وراء تلك الألفاظ الظاهرة من معان أخرى جاءت على غير مفهومها الظاهر، تيسيرا للقارئ، وأخذا بيد المتعلم إلى مراد النبي ﷺ من الكلام .

سابعا: أن التعبير بالعدد بهذه الصورة غير المرادة إذا قورن بينها وبين النص الحقيقي العادي وجدناه يمتاز عنه بعدة وجوه منها:

– الإيجاز من حيث أن ذكر المعنى بهذه الصورة غير خلاف الظاهر له والمتمثلة في التعبير بالعدد على غير مراده فيه من ذكر المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة، لقصد المبالغة في الوصف، أو الكثرة، أو المبالغة في التوكيد والتقرير.

– التوكيد فإنه إذا ذكر العدد بداية ووصوله للمخاطب على صورته، ثم بان له بعد فكر وروية أنه غير مراد ووقف على حقيقته، دخل عنده دخول المأنوس

مما يجعل المعنى أكثر وضوحا وأظهر بيانا لدى المخاطبين مما يجعل المعنى متمكنا في النفس، ومركوزا في الذهن، ومؤكدا في عقل المخاطب فضل تأكيد، وهذا هو المنهج القرآني المعجز في التعبير عن المعاني العظيمة ذات أهمية بالغة لدى المخاطبين، لاسيما ما كان منها متصلا بأبواب العقيدة من حديث عن مبدأ التوحيد، وبيان صفات الله تعالى، أو ذكر أحوال الآخرة وما يقع فيها.

- المبالغة: فإنها تتحقق من استعمال العرب للعدد ولا يراد به ذاته وإنما المبالغة في الوصف، أو للتأكيد والتقرير . كما مر بيانه-

وبـــعد: اللهم هذا بحثي قد ضمنته جهدي، لأدرك من خلاله جانبا من جوانب الحق الذي يتم به الخير، فتقبله . ربنا . بقبول حسن وأنبته نباتا حسنا، وأجرنا فيه خيرا، وحسبي أني اجتهدت، ولا يخطئ المجتهد الأجر، والحمد لله بداية لا تنتهي ونهاية لا تزال تبدأ .

وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

فهرس المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم: {ذَلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ}

ثانيا:

١- أثر التشبيه في تصوير المعنى – قراءة في صحيح مسلم – دكتور/ عبد الباري طه سعد بدون: ط، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

٢- إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام: ابن دقيق العيد: – مطبعة السنة المحمدية – بدون طبعة وبدون تاريخ

٣- أدب الحديث النبوي – بكري شيخ أمين: طبعة: دار الشروق – الخامسة – ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٤- الأدب النبوي – محمد عبد العزيز الخَوْلي – طبعة: دار المعرفة – بيروت: الرابعة ١٤٢٣هـ.

٥- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري – أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني أبو العباس، شهاب الدين – طبعة: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر: السابعة، ١٣٢٣هـ.

٦- أساس البلاغة- أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله: ٢ / ١٦٤ تحقيق: محمد باسل عيون السود – الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان- الأولى، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

٧- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم – دكتور / صبَّاح عبيد دراز، ط، الأمانة مصر- الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٩م.

٨- أسباب النزول لأبي الحسن النيسابوري – تحقيق: كمال بسيوني زغلول، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤١١هـ.

٩- أسد الغابة في معرفة الصحابة- أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير، المحقق: علي محمد معوض – عادل أحمد عبد الموجود- الناشر: دار الكتب العلمية- الأولى: ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

١٠- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية – مجيد عبد الحميد ناجي طبعة: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت، لبنان – الطبعة: الأولى: ١٤٠٤هـ.

١١- الأصول في النحو: لابن السراج - تحقيق: عبد الحصين الفتلي، طبعة: مؤسسة الرسالة، الثالثة: ١٩٨٨م .

١٢- الأغاني لأبي فرج الأصفهاني: تحقيق: سمير جابر ط / دار الفكر بيروت لبنان، الثانية.

١٣- الإفصاح عن معاني الصحاح- أبو المظفر، عون الدين يحيى بن هُبَيْرَة الذهلي الشيبانيّ، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد- ط: دار الوطن- ١٤١٧هـ.

١٤- إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم- عياض بن موسى السبتي -المحقق: الدكتور يحْيَى إِسْمَاعِيل- ط: دار الوفاء، مصر: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

١٥- الأمثال في القرآن الكريم: دكتور: الشريف منصور بن عون العبدلي، ط: عالم المعرفة، الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥م.

١٦- الإيضاح في علوم البلاغة- للخطيب القزويني: تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي ط / دار الجبل-بيروت الثالثة ١٤١٤هـ-٩٩٣م.

١٧- البديع في نقد الشعر للأمير/ أسامة بن منقذ": تحقيق أحمد أحمد بدوي وغيره طبعة/ الجماهيرية العربية المتحدة .

١٨- تأملات في البيان النبوي – د/ إبراهيم عوضين – طبعة: مكتبة المتنبي القاهرة.

١٩- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لأبي العلا محمد عبد الرحمن المباركفوري: الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

٢٠- التصريح بمضمون التوضيح، للشيخ خالد الأزهري طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان – الأولى، ١٤٢١- ٢٠٠٠م.

٢١- التعريفات: للجرجاني: تحقيق دكتور/ عبد الرحمن عميرة، ط عالم الكتب، الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٢٢- تفسير القرطبي المسمى بالجامع لأحكام القرآن: ، طبعة: دار الغد العربي، الثانية.
٢٣- التكرير بين المثير والتأثير د: عز الدين على السيد طبعة: عالم الكتب، الأولى، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.
٢٤- تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري الهروي: تحقيق: محمد عوض مرعب طبعة: دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.
٢٥- التوضيح لشرح الجامع الصحيح - ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي الشافعي المصري: ١٩/ ١٨٢ الناشر: دار النوادر دمشق - سوريا - الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
٢٦- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله - ﷺ - وسننه وأيامه = صحيح البخاري المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر- الناشر: دار طوق النجاة - الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
٢٧- حاشية السيوطي على سنن النسائي - جلال الدين السيوطي الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب- الطبعة: الثانية، ١٤٠٦- ١٩٨٦م.
٢٨- دراسات منهجية في علم البديع: د/ الشحات عبد الرحمن أبوستيت بدون ط، بدون ت.
٢٩- دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجاني، تحقيق/ محمود محمد شاكر طبعة: مطبعة المدني، القاهرة، - مطبعة المدني جدة -١٤١٣- ١٩٩٢م.
٣٠- دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين- "دراسة منهجية تحليلية"

لشيخنا دكتور/ محمود توفيق محمد سعد طبعة: مكتبة وهبة – الطبعة: الثانية ١٤٣٨هـ،٢٠١٧م.

٣١- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين- محمد علي بن محمد بن علان اعتنى بها: خليل مأمون شيحا- الناشر: دار المعرفة بيروت – لبنان- الرابعة، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٣٢- الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج جلال الدين السيوطي تحقيق: أبو اسحق الحويني -: دار ابن عفان للنشر- المملكة العربية السعودية – الخبر -: الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.

٣٣- ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري: تحقيق مصطفى السقا – عبد الحفيظ شلبي – ط دار المعرفة بيروت.

٣٤- ديوان امريء القيس: تحقيق / عبد الرحمن المصطاوي ط، دار المعرفة – بيروت – الثانية، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤ م

٣٥- ديوان القطامي صـ ٤١، تحقيق: د/ إبراهيم السامرائي – أحمد مطلوب – دار النشر: دار الثقافة – الأولى: ١٩٦١م.

٣٦- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني- شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي: المحقق: علي عبد الباري عطية الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت- الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٣٧- سبل استنباط المعاني من القرآن والسنة "دراسة منهجية تأويلية ناقدة – دكتور/ محمود توفيق محمد سعد، صـ ٤٨٩، طبعة: مكتبة وهبة، الأولى: ١٤٣٢هـ، ٢٠١١ م.

٣٨- سبل السلام: محمد بن إسماعيل الصنعاني، طبعة: دار الحديث – بدون.

٣٩- السمات البلاغية في بيان النبوة – د/ صبَّاح عبيد دراز طبعة/ مكتبة وهبة – ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤ م.

٤٠- سنن أبي داود - أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السِّجِسْتاني -المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد- الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.

٤١- سنن الترمذي- محمد بن عيسى الترمذي تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون - مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر- الثانية، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٤٢- السنن الكبرى- أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي المحقق: محمد عبد القادر عطا -: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

٤٣- سنن النسائي: المسمى بـ (المجتبى من السنن) للإمام النسائي تحقيق / عبد الفتاح أبوغدة، ط / مكتبة المطبوعات الإسلامية - حلب، الثانية، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

٤٤- الشافية في علم التصريف لابن الحاجب تحقيق: حسن أحمد العثمان، طبعة: المكتبة المكية مكة - الأولى ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

٤٥- شرح التصريح على التوضيح: للشيخ: خالد الأزهري: ط: دار الكتب العلمية -بيروت - لبنان، الأولى: ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

٤٦- شرح سنن النسائي المسمى «ذخيرة العقبى في شرح المجتبى». لمحمد بن علي الوَلَّوِي - ٣٢٠ طبعة - دار آل بروم للنشر الأولى: ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٤٧- شرح شافية ابن الحاجب: لابن شرف شاه - تحقيق: عبد المقصود محمد عبد المقصود، ط: مكتبة الثقافة الدينية، الأولى: ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

٤٨- شرح صحيح البخاري لابن بطال- أبو الحسن علي بن خلف- تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم طبعة: مكتبة الرشد - السعودية، الرياض-: الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٤٩- شرح صحيح البخاري – محمد بن يوسف شمس الدين الكرماني الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان.
٥٠- شرح نهج البلاغة لابن أبي حديد – تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، ط، دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ـ، الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.
٥١- الشعر والشعراء لابن قتيبة: تحقيق: أحمد محمد شاكر طبعة، دار المعارف، الثانية ١٩٦٧].
٥٢- الصاحبي لابن فارس – تحقيق: السيد أحمد صقر ط، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر ٢٠٠٣.
٥٣- صحيح ابن خزيمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة. تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي- ط: المكتب الإسلامي – بيروت.
٥٤- الطبقات الكبرى – أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد – تحقيق: محمد عبد القادر عطا- ط: دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م].
٥٥- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – للإمام يحي بن حمزة العلوي: – تحقيق محمد عبد السلام شاهين – طبعة: دار الكتب العلمية بيروت – ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
٥٦- العدد غير المقيد لمعدوده في القرآن الكريم – أحمد محمود الجبالي ص بحث منشور في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين القاهرة العدد رقم (٢٩) لسنة ٢٠١١.
٥٧- عمدة القاري شرح صحيح البخاري- بدر الدين العينى الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٥٨- عيون الأخبار لابن قتيبة، طبعة: دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٨هـ.

٥٩- فتح الباري شرح صحيح البخاري- لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي- الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.
٦٠- فتح الباري شرح صحيح البخاري- زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي - تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود، وآخرين - ط: مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة النبوية - الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.
٦١- فتح المنعم شرح صحيح مسلم: د/ موسى شاهين لاشين - الناشر: دار الشروق الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٦٢- فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي - تحقيق: عبد الرزاق المهدي ط: إحياء التراث العربي: الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م
٦٣- فن البلاغة - عبد القادر حسين -، مطبعة الأمانة -بدون تاريخ.
٦٤- فيض القدير شرح الجامع الصغير - زين الدين محمد بن علي المناوي القاهري - الناشر: المكتبة التجارية الكبرى - مصر - الأولى، ١٣٥٦هـ.
٦٥- قطوف من أدب النبوة الشيخ / أحمد حسن الباقوري - طبعة: كتاب اليوم.
٦٦- القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى- محمد صالح العثمنين - طبعة : مؤسسة الرسالة - الرابعة - ١٤١٣هـ.
٦٧- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل- أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري جار الله طبعة: دار الكتاب العربي - بيروت- الثالثة - ١٤٠٧هـ.
٦٨- كشف المشكل من حديث الصحيحين- جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي - المحقق: علي حسين البواب طبعة: دار الوطن - الرياض.

٦٩- كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه المسماة "حاشية السندي على سنن ابن ماجه" = لمحمد بن عبد الهادي التتوي،، نور الدين السندي- الناشر: دار الجيل - بيروت، بدون طبعة.

٧٠- الكوكب الوهَّاج والرَّوض البَهَّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج-: محمد الأمين الأُرَمي - طبعة: دار المنهاج: الأولى، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

٧١- لسان العرب أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور- طبعة: دار صادر - بيروت الثالثة - ١٤١٤هـ.

٧٢- ما يجوز للشاعر في الضرورة: محمد بن جعفر القزاز القيرواني أبو عبد الله التميمي، حققه وقدم له وصنع فهارسه: الدكتور رمضان عبد التواب، الدكتور صلاح الدين الهادي، الناشر: دار العروبة، الكويت-.

٧٣- مجمع الأمثال للميداني: تحقق محمد محي الدين عبد الحميد ط مصطفى البابي الجلي، مصر].

٧٤- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري - طبعة: دار الفكر، بيروت - لبنان- الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٧٥- المستطرف في كل فن مستطرف - شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي الناشر: عالم الكتب - بيروت- الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ.

٧٦- مسند ابن الجعد - علي بن الجَعْد بن عبيد الجَوْهَري البغدادي - تحقيق: عامر أحمد حيدر- الناشر: مؤسسة نادر - بيروت - الأولى، ١٤١٠ - ١٩٩٠م.

٧٧- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله - ﷺ - المسمى بصحيح مسلم لمسلم بن الحجاج النيسابوري تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي طبعة: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٧٨- المطول- سعد الدين التفتازاني: ط المكتبة الأزهرية للتراث.

٧٩- معجم الشعراء – للإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني بتصحيح وتعليق: الأستاذ الدكتور ف. كرنكو الناشر: مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

٨٠- معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس تحقق: عبد السلام محمد هارون ط: دار الفكر: ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

٨١- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم- أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي – حققه وقدم له: محيي الدين ديب ميستو وآخرون – الناشر: دار الكلم الطيب، دمشق – بيروت-: الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

٨٢- من أسرار البيان – دكتور: عبد الحليم محمد شادي – الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٨٣- من بلاغة العدد غير المقيّد لمعدوده في القرآن الكريم " دراسة تحليلية" – أحمد محمود الجبالي بحث منشور في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية – بنين القاهرة العدد التاسع والعشرون ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٨٤- من بلاغة النظم القرآني – دكتور بسيوني عبد الفتاح فيود- مطبعة الحسين الإسلامية – الأولى – ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

٨٥- منهاج البلغاء وسراج الأدباء – حازم القرطاجني، تحقيق: محمد بن الجيب الخوجة – طبعة دار الكتب الشرقية.

٨٦- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج – أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي – طبعة: دار إحياء التراث العربي – بيروت الثانية، ١٣٩٢هـ.

٨٧- منهاج المسلم – أبو بكر الجزائري طبعة: مكتبة الدعوة القاهرة – الثامنة.

٨٨- من وحي القلم – مصطفى صادق الرافعي طبعة مكتبة الإيمان – المنصورة
٨٩- مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت .
٩٠- النهاية في غريب الحديث والأثر- مجد الدين محمد بن محمد الشيباني الجزري ابن الأثير- تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي، ط: المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
٩١- الواضح في أصول الفقه: لأبي الوفاء علي بن عقيل البغدادي- تحقيق عبد الله التركي، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى ١٤٢٠هـ .